كتاب الجمهورية

المرأة

محمد قطب عبد العال

و العفة

وحيد السيد سليم
المحامي بالاستئناف العالي ومجلس الدولة
Wahied El Sayed Selim
Avocat

كتاب الجمهورية

http://www-eltahrir.net

أبريل ٢٠٠٦

وحيد السيد سليم أحمد
المحامي
١٨٥٣٥
٨٠١/٤
٢٤ م

رئيس مجلس الإدارة
محمد أبو الحديد
E- mail:abuelhaded
@eltahrir.net

رئيس التحرير
على هاشم
E-mail: Aly_hashem
@ gitc.com.eg

المرأة
العفة والرغبة

دار
الجمهورية
للصحافة
ت : ٥٧٨٣٣٣٣
١١١ - ١١٥ ش رمسيس - القاهرة

محمد قطب عبد العال

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»
وإذا كان لديك أى مقترحات أو
ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام :
٥٧٨١٠١٠ ٥٧٨٣٣٣٣
http://www.eltahrir.net

أبـريل ٢٠٠٦

تصميم الغلاف: د. باسم فاضل

أسعار البيع فى الخارج

سوريا	١٠٠ ل.س
لبنان	٤٠٠ ل.ل
الأردن	١,٥ دينار
الكويت	١ دينار
السعودية	١٠ ريال
البحرين	١ دينار
قطر	١٠ ريال
الإمارات	١٠ درهم
سلطنة عمان	١ ريال
تونس	٢ دينار
المغرب	٣٠ درهم
اليمن	٣٠٠ ريال
فلسطين	٢ دولار
لندن	٢ جك
أمريكا	٥ دولار
استراليا	٥ دولار استرالى
سويسرا	٥ فرنك سويسرى

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية
٦٠ جنيهًا
الدول العربية ٣٠ دولارًا
أمريكيا
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا
٣٨ دولارا أمريكيًا
أمريكا وكندا
٤٥ دولارا أمريكيًا
باقى دول العالم
٥٨ دولارا أمريكيًا

سكرتير التحرير

سيد عبد الحفيظ

تقـــديم

المرأة وحركة الحياة

اهتمت الدولة بالمرأة اهتماماً واضحاً وسعت إلى إزاحة المعوقات التى تعوقها عن أداء دورها. فالمرأة دعامة أساسية فى بناء أسرة سوية ومجتمع خالٍ من العلل. ولقد جاء زمان كانت المرأة فيه مهمشة لا تقوم بواجبها بالقدر المطلوب. ووقع عليها ظلم فى البدن واجتراء على أجزائه وكذلك فى حقوقها المالية.. والمعنوية.

وأرجع البعض ذلك إلى سيادة عقائد اتخذت طابع الطقس الشعبى والدينى.. وراح البعض يقيم «مندبة» كبرى لرثاء المرأة والوقوف على رفاتها. والحقيقة أن المرأة فى الريف، والصعيد، والحى الشعبى لم تتخل عن دورها وعاطفتها الأمومية. فقد قامت بدورها كاملاً- فى غياب الرجل أو وجوده- وزرعت وحصدت، وقامت بأدوار عديدة.

والمرأة فى هذا الوسط لا يعنيها- فى ظل الفقر والحاجة- أن تتشدق كثيراً بمقولات، أو تساير من يلفظونها.. فهو خطاب موجه لامرأة غيرها فى وسط اجتماعى غير وسطها.. لكنه لا يخاطبها وجهاً لوجه.. والذين يرفعون الشعار يستخدمونه- أحياناً- للإساءة إلى الدين والنيل من نصوصه الدينية وإرجاع تخلف المرأة إلى أحكام دينية تكبلها وتعوقها عن الفعل.. وهؤلاء هم العقبة الكبرى فى اقتناع المرأة بما يقولون.. المرأة التى تعمل وتكدح.. وليست مرتادة الصالونات والندوات، والمؤتمرات «القشيبة».

والقرآن الكريم- فى قصصه المعجز- رسم لنا نموذجا من شخصية المرأة فى تنوعها هادفاً إلى تهذيب الأخلاق وتربية النفس تربية صالحة، فتتوجه النفس الإنسانية بما جبلت عليه من الفطرة إلى الاتجاه السليم.

ولقد لعبت الشخصية دوراً فعالاً فى الحدث مما يكسبها ثراءً دلاليا وغنى فى الجوانب النفسية والاجتماعية والجسيمة.

ولقد أخذت المرأة- كذات لها تكوينها الخاص- مكانها فى القصص القرآنى، فهى تملك شخصيتها التى تعبر عنها بالقول أو بالفعل أو بالإرادة، كما تملك خصائصها الأنثوية المميزة. فالمرأة تتشكل فى الأنشطة التى تمتزج فيها الإنسانية والأنوثة معاً.

وصور المرأة تتعدد: فهى صاحبة الإرادة التى تحطم القيود، وهى مناط التكليف، وهى المعاندة الجاحدة، الخارجة عن طبيعتها ومعتقدها، وهى الواقعة تحت تأثير الهوى وسلطان الغيرة، وهى التى تستجيب لنداء الأنوثة فى الزواج فى حياء أنثوى جميل، وهى الضعيفة ضعف الإنسان فى خلقه «خلق الإنسان ضعيفاً». ونرى -فيها- الأم التى تتجسد فيها عاطفة الأمومة فيضطرب قلبها ويخفق وجدانها وتفيض مشاعرها.

والمرأة فى قصص القرآن لها تكوينها الأنثوى الخاص وسماتها الانفعالية المميزة لها- والأنوثة صفات كثيرة لا تجتمع فى كل امرأة ولا تتوزع- كما يقول العقاد- على نحو واحد فى جميع النساء. والقرآن-- فى قصصه- يصور الدور الذى تقوم به المرأة وفق المنهج القرآنى.. فهى تمثل واقعاً نشطاً فى الحياة، لا يمكن إنكاره أو إبعاده، وتشغل جانباً فاعلاً ومؤثراً. ومن خلال الحركة والفعل والتأثير تتحدد ملامح المرأة كعنصر قصصى، وكنوع بشرى يأخذ دوره فى حركة الحدث والحياة معاً.

ومن ثم فإن القرآن الكريم لم يفرق بين الرجل والمرأة فهى مثله مناط التكليف والمسئولية، وإنما التفاضل فيما اقتضته سنة الحياة، وفى الدور الذى يقوم به كل منهما لدوام الحياة واستمرارها.

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها...﴾ صدق الله العظيم.

محمد قطب

◆ الباب الأول

صورة المرأة في قصص القرآن

مـــدخل

إن طبيعة القصة فى القرآن طبيعة مغايرة لفنون القصص الاخرى.

فالقصة القرآنية ليست عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه وإنما هى وسيلة من وسائل القرآن الكريم إلى تحقيق الهدف، ذلك أن القرآن كتاب دعوة وهداية قبل كل شئ والقصة إحدى الوسائل لابلاغ هذه الدعوة.

والقصة فى القرآن تتسم بالصدق الموضوعى والشعورى، فهى تبتعد عن الخلط بين الحقائق والاوهام، فضلا عن ابتعادها عن الاساطير والخرافات والخيال الوثنى وتتناول الواقع وتتّبع آثار الحقيقة الجميلة فيه.

والقرآن يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة. والابداع القصصى فى القرآن لا يتأتى إعجازه وجماله وصدقه من ناحية اللفظ أو من ناحية المعنى، أو من ناحية الحدث، أو من ناحية الذات أو من ناحية النسق العام، ولكن يتأتى إعجازه من المنهج الكامل الفريد المتمازج الذى يذوب كل عنصر من عناصره فى قلب العنصر الآخر.

والقصة فى القرآن تتناول قضايا نفسية تتضمن الترغيب والترهيب والتبشير والإنذار، فتتوجه النفس الانسانية بما جبلت عليه إلى الاتجاه الصحيح، وتبتعد عن الطريق المعوج.

وإذا ما أمعنا النظر فى قصص القرآن لوجدنا أنه لا تكاد قصة تخلو من ترغيب يبعث على الرجاء والامل، او ترهيب يثير الخوف، وهما محوران ـ الرجاء والخوف ـ اساسيان من قوى النفس البشرية.

وحين يتلقى المسلم هذا النوع من القصص الذى يتناول مصائر الامم، ونتائج الفعل السلوكى الخاطئ، يزدجر ويعتبر، وحين يرى المؤمنين الصالحين، المخلصين فى العقيدة المدافعين الملتزمين بالمنهج الالهى وقد رضى الله عنهم يتوقد أملا إلى الحصول على هذا الرضى وذلك الثواب.. وتخليص النفس من مخاطر الزلل وسوء الفعل أحد اهداف القصة، وبذلك يكفل المنهج القرآنى الخير لهناء النفوس وتهذيب الاخلاق وتربية الانسان تربية صالحة.

والقصة وهى تسعى إلى تحقيق ذلك تستخدم العناصر الفنية التى تكفل للفعل تأثيره فى المتلقى من شخصية درامية إلى الحوار والسرد ورسم الموقف والايقاع الموسيقى المؤثر.

وتلعب الشخصية دوراً فعالاً فى العمل القصصى، إذ هى مجال للمعانى التى تدور حولها الاحداث ومن ثم تدفع بالصراع فيتعمق الحدث ويتواصل المعنى، وتصبح الشخصية ذات فعالية مؤثرة وتكتسب ثراء دلاليا وغنى فى الجوانب النفسية والاجتماعية والجسمية.

والقصة القرآنية تعطى الشخصية دوراً بارزاً فى السياق القصصى، حيث تصور الذات وهى تتحرك، وتجادل، وتشارك، وتعظ، وتدعو، وتواجه وتنفعل، وتتناقض، بحيث تتوالى حولها الاحداث، وتتعدد درجات الصراع.

والقرآن لم يعرض هذا العنصر الفنى لذاته وانما للتأسى بالجوانب الخيرة، والتنفير من الجوانب الشريرة ومن ثم لم يعن بالخطوط الشكلية او الملامح الخارجية، وإنما عنى بكشف المزاج، والدافع، والانفعال، والسلوك.

ولقد اخذت المرأة ـ كذات لها تكوينها الخاص ـ مكانها فى القصص القرآنى، فهى تملك شخصيتها التى تعبر عنها بالقول أو بالفعل او بالارادة المتحررة، كما تملك خصائصها الانثوية المميزة ، فالمرأة تتشكل فى الانشطة التى تمتزج فيها الانسانية والانوثة معا.

فهى الانسانة العاقلة التى تتصرف مع الواقع ببصيرتها، وهى صاحبة الارادة القاطعة التى تذلل الصعاب وتحطم القيود، وهى مناط التكليف، وهى المعاندة الجاحدة التى تخرج عن طبيعتها، وتنحرف عن المعتقد الصحيح، ثم هى المرأة المنحرفة التى يسيطر عليها الهوى والشعور بالغيرة والالم والحقد والغضب.

وفى القرآن نرى المرأة التى تستجيب لطبيعة الانثى التى تتمنى الزواج وتطلبه... فى تلطف وحياء ـ ونرى المرأة التى يسيطر عليها الحب، ويغلبها الهوى وتستخدم الكيد والحيلة لتحقيقه ونرى الأم التى تتجسد فيها عاطفة الامومة فيضطرب قلبها ويخفق وجدانها وتفيض مشاعرها.

ويخبرنا القرآن أن الضعف البشرى صفة انسانية عامة فى الرجل والمرأة معاً.

والمرأة عنصر فعال فى الموقف القصصى بما يثار من عواطف الرجل، نحو المرأة، والمرأة نحو الرجل فهما منذ بدء الخليقة يتشاركان فى حركة الحياة جنباً إلى جنب.

والقصة فى القرآن الكريم وهى تتناول المرأة تحرص على توصيل المنهج الاخلاقى الداعى إلى التهذيب والتربية. وتناول القرآن للمرأة تناول يصور الدور الذى تقوم به وفق المنهج القرآنى، فهى تمثل واقعاً نشطاً فى الحياة، لا يمكن إنكاره أو ابعاده،

وتشغل جانباً فاعلا ومؤثراً ،ومن خلال الحركة والفعل والتأثير تتحدد ملامح المرأة كعنصر قصصى، وكنوع بشرى، يأخذ دوره فى حركة الحدث والحياة معاً.

ومن ثم فالمرأة لم تأت فى قصص القرآن لذاتها.. «بحيث تكون محوراً تدور حوله أحداث القصة، أو تستجلب استجلاباً لتؤدى دور التشويق والاستثارة ثم تمضى وإنما هى فى مكانها الحقيقى فى الحدث - إن كان لها مكان - وإلا فلا يرى لها وجه، شأنها شأن أى غريب عن الحادثة من اشخاص واشياء.. ولذلك خلا كثير من القصص القرآنى من المرأة» (١).

والقرآن وهو يورد المواقف القصصية التى كان للمرأة دور فاعل فيها يجعلنا نتعرف عليها كإنسان وكائنى لها ملامحها من خلال الحدث القصصى فهى إنسان تخضع للقوانين والمواصفات والاخلاق كالرجل تماماً ثم هى امرأة لها تكوين انثوى خاص.. يخضع هذا التكوين للوجود الذاتى الذى يتميز بالانفعال والعاطفة، والميول والاهواء، والغرائز .

والانفعال أحد ملامح المرأة.. اياً كانت درجة الانفعال ونوعه. فالغيرة مثلا - انفعال يمثل الاستجابة لمثيرما.. وهى خليط من انفعالات اخرى يمتزج فيها الغضب بالخوف بالحب.

وتمثل الحياة الانفعالية جانباً مهماً من جوانب الشخصية حيث أنها لا تؤثر فى توجيه سلوك الفرد فحسب، بل تتدخل إلى حد كبير فى سلامته النفسية» (٢).

والانفعال حالة من الإثارة النفسية تحدث للانسان فى موقف يتضمن صراعاً أو توتراً، أو سروراً، او حزناً، ويقاس بدرجة الاستجابة اليه.

وهو بالنسبة للمرأة قوة دافعة يؤدى إلى تنويع السلوك وتعديله حتى يتحقق الهدف ويخفف التوتر، ومن ثم تصبح الارادة إحدى الكوابح المؤثرة، إذ يتأثر درجة إنفعال الفرد بمدى فهمه للموقف المثير، وهو يختلف باختلاف النهج والتكوين النفسى.. ولعل ملكة سبأ، وامرأة فرعون.. أن تكونا نموذجاً لانضواء الانفعال تحت الارادة.. فى الوقت الذى تتغاير فيه المعادلة فى شخصية امرأة العزيز.

والمرأة لها وجودها وكيانها، ولقد ضربت المثل فى حرية الفكر والوجدان فضلا عن المسئولية.. انطلاقاً من أن الانسان رجلا كان او امرأة - مسئول عما يفعل.

وخصائص الانوثة تتجلى واضحة فى قصص القرآن تلك الخصائص التى تتمثل فى العذرية - والطهارة، والحياء، والخوف من السوء والرعب من الفعل الشائن، وهى تتجلى - لحظة الجموح - انفعالاً حاداً ، مدفوعة بجمال شكلى، لا تعدم الحيلة أو الكيد لتحقيقه - إنه العشق - والانتقام معاً.

---

(١) القصص القرآنى فى منطوقة ومنظومة عبدالكريم الخطيب ص ١٦٦

(٢) السلوك الإنسانى. د. إنتصار يونس ص ١٥٩.

والانوثة صفات كثيرة لا تجتمع فى كل امرأة ولا تتوزع ـ كما يقول العقاد ـ على نحو واحد فى جميع النساء.

ولقد رفع القرآن الكريم عن المرأة لعنة الخطيئة الابدية ووصمة الجسد المرذول، حين بين ان الزوجين كليهما قد وسوس لهما الشيطان، فوقعا فى الخطأ ثم ندما، وتابا معا.

ولعل لحظة الضعف البشرى من أصدق المواقف الفعلية المرتبطة بدرجة الوجدان وفورتة فى النفس البشرية، انطلاقاً من أن الانسان ـ الرجل والمرأة ـ بوتقة من صراع ينشب بين محورين هما: القوة والضعف.

والقرآن وهو يصور لحظة الضعف عند الأنثى يسرع فى عرضه للحظة الضعف هذه، ويسلط الضوء على لحظة الافاقة «لأنه لم يشأ أن يجعل من ذلك معرضا للجمال والاغراء حتى لا يوسع دائرة الشوق الجنسى أو يحصر أشواق الإنسان فى تلك اللحظة العابرة»[1].

فالقرآن يدعو إلى السمو والاستعلاء فوق لحظات الضعف.

والقرآن لم يفرق بين الرجل والمرأة، لأنهما خلقا من نفس واحدة، فكانت مثله مناط التكليف والمسئولية وأهلا للتشريف الإلهى: وإنما جاء التفاضل فيما اقتضته سنة الحياة وفى الدور الذى يقوم به كل منهما لدوام الحياة واستمرارها. ويظل العمل الصالح هو المعيار الأخلاقى الذى يتمايز به إنسان على آخر فضلا عن تمسكه بالتقوى وانحيازه لها.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ النساء آية ١.

---

(١) سيكلوجية القصة فى القرآن ص ٤٠٠ .

التكامل بين الذكر والأنثى

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان لعمارة الأرض ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [1]. وجاء خلقه من طين ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [2]. واقتضت المشيئة الإلهية أن يهيِّء للإنسان السكن والمودة والرحمة، فخلق من آدم حواء لتحقيق هذه المعاني. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[3].

ولقد تسلم الإنسان زمام الأرض وأطلق فيها يده ـ وكشف ما فيها من طاقات وكنوز وخامات. ومن أجل تنمية الأرض وعمارتها واستحقاق الإنسان للخلافة سلحه الله بطاقات واستعدادات عقلية وفكرية وروحية بما يحقق مشيئة الله فى هذا الاستخلاف. والإنسان مركّب من عناصر متعددة، قد تؤدى إلى الفساد، الأمر الذى دعا الملائكة إلى التساؤل ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ والتساؤل يوحى بشىء من فطرة الإنسان، ومن طبيعة الحياة على الأرض. ومع ذلك فقد كرم من الملائكة أنفسهم حين أمروا بالسجود له.

والإنسان وهب من الأسرار ما يرتفع بها على الملائكة. فلقد «وهب سر المعرفة، كما وهب سر الإرادة المستقلة التى تختار الطريق» كما أن ازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته فى شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله» [4] يعتبر من أسرار التكريم له.

١- البقرة آية ٣٠.
٢- المؤمنون آية ١٢.
٣- الروم آية ٢١.
٤- ظلال القرآن جـ ١ ص ٥٧.

والتذكير بأصل النشأة وهو الخلق من الطين إشارة إلى التدبر فى صنع الله. والقرآن يقرر تكريم هذا المخلوق من الطين حين يؤكد على أن فيه نفخة من روح الله وهى التى منحته الخصائص الإنسانية التى ميزته عن غيره من المخلوقات.... ومن ثم فلقد وقع أسير قوتين يحكمان حياته ويحددان مجال السلوك، ويشيان بصراع هائل يشتجر فى ذاته وباطنه.. وهما القوة العليا، والقوة السفلى. فهو حين يسمو بالروح يخف ويشف ويرتفع ساميا فى العلو يصل به إلى مرتبة الملائكة.. كما أنه حين يتدنى خلقيا ويقترب من الطبيعة الحيوانية المشدودة إلى طبيعة الأرض وثقلها، يغلظ ويسفل ويتدنى حتى لا يختلف كثيراً عن البهائم.. ومن خلال هذه الثنائية التى تحكم طبيعة المخلوق ينفذ الشيطان ويخترق هذا التكوين المزدوج ويتغلغل من الفجوات ويتلاعب بالتناقض ويحرك الصراع لصالحه.. ومن ثم تتحول القوتان اللتان تحكمانه إلى محورى الخير والشر ـ بما يمثلانه من حياة بشرية كاملة ترتبط بالحياة على الأرض التى اختارها الله مجالا للحركة والنمو والاستخلاف، واختارها أيضا أصلا للنشأة والخلق.

والأرض هى الأصل فى التكوين وهى المجال فى الحركة والحياة.. ومن ثم جاء خلق الأنثى لتكتمل دائرة الحياة وتتشعب وتمتلئ جنبات الأرض بالقوى البشرية، تعمر، وتكشف، وتنمى.

والمشاعر تجاه الأنثى أمر فطرى، تدفع الإنسان إلى تحديد النشاط والاتجاه وقياس العلاقة بين الرجل والمرأة.. وعلينا أن نتذكر يد الله التى خلقت من الأنفس أزواجا.. وأودعت فى النفوس العواطف والمشاعر وجعلت من الصلة بين الاثنين سكنا وراحة واستقرارا وأنسا وطمأنينة.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى عمق هذه الصلة وروعة هذه العلاقة فى صورة أخاذة «وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس» وجاء التعبير «لتسكنوا» معبراً عن هذه العلاقة الرهيفة الممتلئة بعبق العواطف.

لقد جاء الخلق للذكر والأنثى ملبيا للحاجة الفطرية، النفسية والعقلية والجسدية، وحقق اجتماعهما الاكتفاء والمودة والرحمة، وذلك «... لأن تركيبهما النفسى والعصبى والعضوى ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما فى الآخر وائتلافهما وامتزاجهما فى النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل فى جيل جديد»[1].

١- ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٧٣.

وبهذا المعنى يتحقق التكامل بين الذكر والأنثى. فكلاهما متكاملان. وينتفى عنصر المنافسة بينهما، ذلك أن بعضا من الناس يحسبون أن الرجل والمرأة خلقا متنافسين، ولكنهما فى الحقيقة خلقا متكاملين. ولقد أراد الله تبارك وتعالى أن يلفتنا إلى هذا التكامل بين الرجل والمرأة، فربط ذلك بالتكامل بين الليل والنهار وذلك فى قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣)﴾ [١] فالليل والنهار مختلفان فى الطبيعة، ولكنهما مكتملان لتسهيل حركة الحياة، ولا يستطيع أحد أن يقول: إنهما متعاندان. وكذلك الرجل والمرأة خلقهما الله سبحانه متكاملين وليسا متعاندين ليؤدى كل منهما مهمته فى حركة الحياة [٢].

والطبيعة البشرية فى كل من الرجل والمرأة تكاد تكون على حد سواء. فالله قد وهب النساء كما قد وهب الرجال من المواهب والقدرات والخصائص ما يمكن كلا منهما من أن يتحمل المسئولية بالقدر الذى يؤدى إلى إعمار الأرض ونمائها، ومن ثم فكل منهما مؤهل لحمل الرسالة وتحقيق هدف الخلافة.

ولقد رسم القرآن الكريم الخطوط العامة المشتركة بين الرجل والمرأة، كما سار بهما «فى التحدث عنهما بإبراز المصلحين والمصلحات، وإبراز المفسدين والمفسدات على هذا النحو الذى يشتركان فيه، والذى يدل دلالة واضحة على أنهما من قديم الزمان قوتان تعملان وتوجهان وتكتسبان، وأنهما قد يكتسبان الخير والصلاح، وقد يكتسبان الشر والفساد..» [٣].

ولقد أبرز القصص القرآنى فى تناوله لصورة المرأة أن الأنوثة لا تعنى الضعف وأن الذكورة لا تعنى القوة. وإنما يعتورهما معا صفات القوة والضعف، الإيمان والكفر، الصلاح والفساد.

والقرآن لم يفضل نوعا على آخر إلا بمقدار الدور الذى يقوم به فى مجال العقيدة والأخلاق. ولقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله سبحانه اصطفى من الرجال من تميزوا بحمل الرسالة وأداء الدور الإيمانى الملقى عليهم ـ كما أخبرنا عن اصطفاء الله للنساء أيضا ـ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ [٤].

ومما يجب تأكيده فى هذا المجال أن القرآن الكريم قد ساوى بين الناس جميعا.. فلم يفرق

١- سورة الليل ١-٣.
٢- انظر المرأة فى القرآن ـ الشيخ محمد متولى الشعراوى ص ١٢-١٥.
٣- من توجيهات الإسلام «محمود شلتوت».
٤- آل عمران ٤٢.

في الحقوق بين رجل وامرأة، كما لم يمايز في المجال الديني بينهما.. ولا غرابة في ذلك، فلقد خلقهما الله من نفس واحدة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[1].

فالزوجة قطعة من الزوج، وهي مثله مناط التكليف والتشريف، ولقد رفع عنها القرآن المهانة، ورفع عنها لعنة الخطيئة وأنقذها من الحكم الجائر الذي وقع عليها ورسم لها صورة شاملة كاملة وهي تقوم بالمسئولية وترتاد جوانب الخير كما تنزلق إلى مجالات الشر.

١- النساء آية ١.

الأنثى والضعف البشري

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١].

وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [٣].

١- البقرة آية ٣٥-٣٨.
٢- طه آية ١٢٠-١٢٢.
٣- الاعراف ٢٠-٢٢.

انتهت المواجهة بين الملائكة وآدم وأذعنوا للأمر الإلهى، فعلم الله شامل محيط يعرف الدور الذى سيقوم به هذا الكائن الجديد ــ آدم ــ وحين سجدوا كان سجودهم تسليما للقدرة الإلهية. إلا أن إبليس وقد سيطر عليه الحقد وشملته الغيرة أبى واستكبر ورفض السجود عندا وكبرا، فلعنه الله وطرده من جنته مذموما مدحورا.

«وجاء الأمر الموجه إلى آدم وزوجته أن يسكنا الجنة، وأن يتذكرا نعمة الله التى تفضل بها عليهما.. وأن يعيا جيدا أن إبليس عدو لهما وهو حريص على أن يخرجهما من هذا النعيم المقيم».

وتذكر الروايات أن آدم ــ وقد سكن الجنة ــ وتلذذ بما فيها من نعيم وخيرات قد أحس بالوحشة، لإحساسه القوى بالوحدة بالرغم من هذا النعيم العظيم الذى يتفيأ ظلاله.. وهذا الشعور الكامل بالضجر شعور فطرى ــ شاء الله سبحانه أن ــ يكون سببا مباشرا لخلق حواء.. أما السبب الجوهرى فهو عمارة الأرض وتعميرها بالذرية وعبادة الله وحده ونشر عقيدة التوحيد.

وشاءت القدرة أن يكون خلق الأنثى من نفس آدم لتكون بضعة منه، تحمل صفاته بثنائيتها.. قبضة التراب من الأرض، والنفخة الإلهية الكريمة.. أى تجمع فى ذاتها بين الخير والشر: ولقد تأكدت هذه الصفة البشرية فى أول امتحان لهما فى الجنة قبل أن يهبطا إلى الأرض.

وعن ابن عباس وجمْع من الصحابة أنهم قالوا «أخرج إبليس من الجنة حين لعن، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشى فيها وحشا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ وإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها من أنت؟ فقالت: امرأة ــ قال: ولم خلقت؟ قالت: تسكن إليّ. قالت له: الملائكة ينظرون ما مبلغ علمه ــ ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء قالوا: ولم كانت حواء؟ قال لأنها خلقت من شىء حى»[1].

ولعلنا ندرك من الحوار الذى دار بين آدم وحواء ملامح الشخصية المميزة للأنثى وإدراكها الفطرى بحقيقة الدور الذى خلقت من أجله ــ لقد خلقت وهى مسلحة بهذا الدور وكأنما هو شىء غريزى يسرى مسرى الدم، ويتخلق فى تصرفها، وشعورها وعاطفتها شيئا له كيان خاص وسمات محددة.. فهى تعلم مدى ما يمثله السكن بالنسبة للرجل.. من أمن وأمان وطمأنينة قلب ورعاية لحياة بأكملها.. لقد خلقت وهى مهيأة لذلك كله ومن ثم لم يكن عجيبا أن يطلق عليها آدم اسم «حواء» بصيغة المبالغة وبصفة الحياة الممتدة منها وحين وجدها

١- تفسير الطبرى ـ جامع البيان. تحقيق محمود شاكر جـ١ ص ٥١٣. وانظر قصص الأنبياء لابن كثير جـ١ ص ٤٣.

آدم أمامه أحس بالأنس بعد وحشة، وبالأنيس بعد عزلة، وبالفرحة بعد الضجر. وآنسه أن يجدها أمامه على هذه الهيئة التى بدت عليها.. أنثى مكتملة الأنوثة تكمل به دورها المرتقب الذى تعيه تماما فى انتظار لحظة القدرة الفاعلة.

ومضيا ينهلان من نعيم الجنة ويتمتعان بكل ما تشتهى النفس، وانطلقا فى فرحة بشرية يتنقلان بين الأشجار، ويتفيآن الظلال، ويقطفان الثمار والأزهار ويرتويان بالماء النمير العذب. كانا فى متعة خالصة.. وشعرا بسعادة غامرة تشملهما، وبفرحة طاغية تقودهما إلى حركة الأنس والطمأنينة.

ولقد أبيح نعيم الجنة كله إلا شجرة واحدة . ولم يشغلهما هذا الأمر ولم يناقشا ذلك المحظور.. فقد كانا على الفطرة التى لم يدنسها شيء. ولم يدركا بعد الحكمة من وراء الحظر، فلم يقعا فى التجربة بعد «فبغير محظور لا تنبت الإرادة، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد والتقيد بالشرط. فالإرادة هى مفرق الطريق» [1].

والتدريب على قوة الإرادة يستتبع الامتثال للأمر والتدريب على الامتناع، ويصبح الأمر فى النهاية اختبارا لهذه القوة المدربة. ويقع الإنسان فى هذه الحالة بين اختيارين:

الأول: الامتثال والاقتناع.

والثانى: السقوط والإخفاق فى التجربة.

وهذا الاختيار الذى يكرس حرية الإنسان هو الدافع للاستخلاف والمؤدى إليه. ومن ثم يكمن الضعف فى القوة والفساد فى الصحة.

ويجمح الخيال، وتتقاطر الرغبات.. والرغد كله مفروش أمامهما وفى متناول الأيدى ـ كلما مضيا فى الجنة، وتجولا فيها ـ ترى ما سر هذه الشجرة التى نهيت حواء وآدم عن القرب منها؟ فالمنهى فى الحقيقة هو الأكل من ثمار هذه الشجرة «وتعليق النهى بالقرب منها «ولا تقربا» لقصد المبالغة فى النهى عن الأكل، إذ النهى عن القرب نهى عن الفعل بطريق أبلغ» [2].

ولقد اختلف فى الشجرة التى نهيت حواء عنها مع آدم.. حيث أتيح لهما الطعام الرغد دون تناوله.... من شجرة بعينها. وظل الاختيار قائما حتى اقترفا الفعل معاً.

عن ابن عباس «الشجرة التى نهى عن أكل ثمرها آدم هى السنبلة» أى القمح.

١- ظلال القران جـ١ ص ٥٨.
٢- صفوة التفاسير جـ١ ص٥١.

ولكن «وهب بن منبه» يصف حبة البر «القمح» وصفا جميلا يوحى بالإغراء ويشى بالرغبة الجامحة فى التهامها، ويعطى انطباعا بحديث النفس الراغبة فى الفعل المنهى عنه.. بل ولعله من هذا الوصف المبالغ فيه يعطى إيهاما تبريريا بسطوة الشهوة تجاه هذا الممنوع المرغوب.

«وعن وهب بن منبه أنه كان يقول: هى البُرُّ ولكن الحبة منها فى الجنة ككلى البقر، ألين من الزبد، وأحلى من العسل. وأهل التوراة يقولون: هى البر»[1].

كما ورد أنها الشجرة التى تحتك بها الملائكة للخلد. وعن ابن عباس أيضا أنها الكرمة.. وأيا كان الأمر فإن الشجرة المحرمة هى رمز للمحظور المنهى عنه.

إننا فى موقف متأزم. تشكله أبعاد ثلاثة: آدم وحواء والشجرة المحرمة، ثم إبليس.

أنها الأبعاد الثلاثة التى يحدث من خلالها الصراع الذى يؤدى إلى الضعف أو الثبات. وهى فى تجريد واضح، الإنسان، الشهوة، الشيطان.

ووجد الشيطان فى هذه المعادلة فرصته، فلقد حز فى نفسه أن ينعم آدم وحواء بهذا النعيم الذى طرد منه، فقرر بهمسه وخبثه ووسوسته أن يقوض هذا النعيم ويحيل الفرحة إلى حزن بل ويصر على سلبهما تلك النعمة انطلاقا من حقده وغيرته والعهد الذى قطعه لإغواء الإنسان. فلم ينس يوما أن خلق الإنسان كان بداية لسقوطه من عل.. وهو يثأر ممن كان السبب.. وكانت الشجرة ـ الرغبة الممنوعة ـ هى وسيلة تغلغله الناعم إلى آدم وحواء، ولقد دلف إلى الجنة وحدثهما فى خفاء وأوهمهما «بأنه صادق الود مخلص فى النصح، ثم جد فى استمالتهما إليه فلم يترك سبيلا لذلك إلا ولجه أو بابا إلا طرقه. وأظهر له ولزوجه عطفه عليهما واشفاقه من زوال نعمتهما»[2].

وإبليس يلمس فى النفس البشرية الموضع الحساس والرغبة فى الحياة، والأمل فى الخلود. فالتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الثابت الممتد رغائب نفسية فطر الإنسان عليها.

ولقد تبدت فى أول لحظة من لحظات الاختبار.

وآدم وحواء مخلوقان بهذه الفطرة وبصفة الضعف الملازمة فالضعف صفة أظهرتها هذه التجربة ـ وهى صفة لحقت بحواء كما لحقت بآدم أيضا.. وذلك تواؤما مع طبيعة الخلق «خُلق الإنسان ضعيفا».

والسياق القرآنى يوحى بأنهما ابتعدا عن مشورته ولم يسمعا له، ولم يأخذا بنصيحته، بل

١- جامع البيان جـ١ ص ٥١٨.

٢- قصص القرآن: محمد احمد جاد المولى ص٩.

وخالفاه فى رغبته المخادعة المغرية بالاقتراب من الشجرة والأكل منها ـ فأقبل إبليس عليهما مقسما بأنه من الناصحين وأنه لا يقصد الضرر ولا يريده لهما . يظل إبليس يلح ويتمادى فى إغرائه بطيب رائحة الشجرة، وبديع طعمها وجمال شكلها وتألق لونها.

وتحركت الرغبة الكامنة وانخدعا بالوسوسة المعسولة، وافتتنا بلحن القول الكاذب، فسقطا، وزلا معا، دون أن ينفرد أحد منهما بالفعل الآثم.

لقد حمل الإنسان نقطة ضعفه التى استزله الشيطان منها• فانشغاله بشهوة الخلود أعجزه عن ضبط نفسه، والارتفاع بها إلى أعلى، فسقط، وأدان نفسه بنفسه واستحق غضب الله.

وتحكى الروايات عن الوسائل الخادعة التى مارسها إبليس للإغراء، كما تشير إلى مسئولية حواء عن الخطيئة الأولى ـ الأكل من الشجرة المحرمة ـ وهو ما لم يرد فى السياق القرانى.

ففى رواية عن ابن عباس.. إن إبليس جاء إلى حواء بعد ما أخذ من الشجرة التى نهى آدم وزوجته عنها، وبعد أن تخفَّى فى جوف الحية.. وقال: «انظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها. فأخذت حواء فأكلت ثم ذهبت بها إلى آدم فقالت: انظر إلى هذه الشجرة.. ما أطيب ريحها وأطيب طعمها فأكل منها آدم فبدت لهما سواتهما..» [1] .

وفى رواية أن إبليس حين عرض الشجرة على آدم أبى «فتقدمت حواء فأكلت ثم قالت يا آدم كلْ فإنى قد أكلت فلم يضرنى».

وتنزلق الروايات إلى عالم التخيل حين تروى أن حواء هى التى قامت بالفعل أولا ثم طلبت من آدم أن يفعل مثلما فعلت وأنها حين قطعت الشجرة دميت الشجرة فعاقب الله حواء قائلا : «كما أدميت الشجرة تدمين فى كل هلال».

والقرآن الكريم يعارض ذلك كله، فلقد كان النداء تكليفا لهما معا، كما بين أن الشيطان وسوس لآدم وزوجته ليبدى لهما ما وورى من سوآتهما، وأنه قاسمهما معا على أنه من الناصحين. وهذا دليل على أنه قد «باشر خطابهما بنفسه إما ظاهرا لأعينهما وإما مستجنا فى غيره»[2].. فالشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم.

وكل الروايات التى تصور حواء واقعة فى الخطأ، مستسلمة لإبليس مرددة لأقواله وإغراءاته دافعة بآدم إلى الفعل الآثم روايات لا تتلاءم مع السياق القرآنى، فلقد أمرا معا، وضعفا معا.

---

(١) جامع البيان جـ١ ص ٥٢٦.
(٢) نفسه ص٥٣١

ولقد ظهر الأثر سريعا، فحين أكلا بدت سوآتهما تظهر وتتحدد وتستيقظ، ومضيا في جنبات الجنة يستتران، ويغطيان مواضع العورة.. بورق الجنة...

لقد كانا يتمتعان... ببراءة طفولية - فالطفل لا يخجل من كشف موضع العفة ولا ينتبه إليها.. ولكنه حين تنتبه دوافعه يخجل ويتوارى ويعمل على سترها.

والتعبير القرآني يوحى بأن السوءات كانت محجوبة عنهما «فبدت لهما سوآتهما» ثم ظهرت بدافع داخلي من إحساسهما. وهو نفس المعنى الذى ورد في موضع آخر «ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوآتهما..» كما جاء في موضع آخر «ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما» واللباس هو الشعور الساتر، (قد يكون هو شعور البراءة والطهارة والصلة بالله) [1]

ولعل الرغبة في الخلود التي وسوس بها الشيطان إلى آدم وحواء تكمن في هذا العصيان الذى أدى إلى استيقاظ الدافع الجنسي المؤدى إلى التزاوج والتناسل، أنها وسيلة الإنسان (للإمتداد وراء العمر الفردي المحدود..).

ولقد اعترف آدم وحواء بالذنب الذى وقعا فيه وندما على ما فعلا ندما شديدا وتابا توبة خالصة فاجتباهما الله وأدركتهما رحمته.. وانبثق الأمل في نفسيهما في أن يتمتعا بنعيم الجنة.. ولكن الله أمرهما بالهبوط منها وأخبرهما أن العداوة بينهما وبين إبليس قائمة حتى الساعة، وعليهما أن يحذرا فتنه ولا يصغيا إلى اغوائه -فلقد دخلا في مرحلة جديدة. فمن تبع هدى الله ينج، ومن أعرض عن ذكر الله ضل سعيه في الدنيا والآخرة.

ـ لقد هبطا معا لتبدأ مسيرة الحياة وحركتها الهادرة.

ولقد شاركت حواء آدم حياته في الجنة كما شاركته مكابدة الحياة على الأرض. وأنها مثله تماما قد ضعفت فعصت ربها.. فالضعف سمة بشرية لا يختص بها جنس دون الآخر، ومن ثم فهي مسئولة بقدر مسئولية آدم عما حدث..

وهذا الضعف البشرى الفطرى تدريب للإدارة وتنبيه لضبط الرغبات والتحكم فيها والاستعلاء عليها حتى يواجه الصراع بينه وبين عدوه الحقيقي.. إبليس اللعين.

«وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى»[2].

---

(١) ظلال القرآن جـ٤ ص٢٣٥٤
(٢) النجم ٣٩ - ٤٠

المرأة وفتنة الجمال

يسمو الإنسان بنفسه ويعلو فوق الطبيعة الجامدة، فهو الأعقل والأعمق والأفضل.

إنه القوة المبدعة والروح الصافية السامية. ومع ذلك فهو يجمع الاضداد والتناقضات ويشتجر فى داخله صراع أبدى بين الخير والشر، والحق والباطل، ومن ثم جاء التوجيه الإلهى إلى الغوص فى أعماق النفس البشرية التى تجمع هذا الخلط العجيب من المشاعر والانفعالات. وذلك من أجل انزياح الشر وإعلاء عنصر الخير.

لقد كشفت القصة القرآنية عن الشعور الإنسانى الفطرى فى النفس البشرية حيث لمست أبرز المشاعر وأرقها وأنبلها، كما عّرت النفس البشرية فى عنادها وتهورها ووقوعها تحت سيطرة الانفعال غير السوى.

ولقد عالجت القصة فى القرآن شرور النفس ومسالكها المريضة، حتى تضرب للبشر العبرة، وحتى تكشف مجال الصراع بين الخير والشر وهما قوتان تتصارعان منذ أن همس إبليس لآدم أن يعصى ربه.

إن وراء النفس البشرية حياة متلاطمة الأمواج، قليل منها يظهر، والكثير مؤلف من نزعات خفية وأهواء دفينة وأحلام مكبوتة. ذلك كله مطمور تحت قشرة رقيقة فى المخزون النفسى الذى يشبه البركان الخامد. وهذه التراكمات المكبوتة لها آثارها على الذات والسلوك.

وقصة قابيل وهابيل -ولدى آدم- نموذج على حدة الصراع بين قوتى الخير والشر. وهو صراع دار حول الأنثى. وكانت الأنثى هى محرك الصراع ودافعه. أو بالأحرى كان الجمال هو مثير الفتنة ودافع الشر.

قال تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

استقرت الحياة بآدم وزوجته. واستقبلت حواء أولادها عاماً بعد عام. وبدأت الإنسانية تتشكل، فتزدهى الأرض بزهرات بشرية تؤنس وتسعد. وكانت حواء فرحة مستبشرة وهى تعطى للدنيا توائم متتابعة تقاسى من أجلها الأهوال والآلام الشديدة. ثم سرعان ما تنتهى برؤيتهم فإذا هى قريرة العين مطمئنة القلب، تغدق العطف والحنان.

ووضعت حواء توأمين قابيل وأخته، ثم هابيل وأخته وشبوا جميعاً فى رعاية الأبوين حتى امتلأوا نضارة وشبابا. (ونزعت البنتان إلى منازع النساء، وانبعث الولدان يضربان فى الأرض كسباً للرزق. فكان قابيل من زراع الأرض وكان أخوه من رعاة الأغنام»[2].

وتمضى الأيام وتتتابع، فتقوى فى الولدين غريزة الحياة، مال كل منهما إلى أن يتخذ له زوجة يسكن إليها. ويطمئن بالصحبة معها. فتعمر الدنيا ويكثر الناس وتتحقق سنة الله فى الكون وتتجلى الحكمة من الخلق. فيحدث التكاثر والتباين فى الرأى والمنزع والنوع والخلقة.

وفى رواية عن ابن مسعود «أن آدم كان يزوج كل بطن بأنثى البطن الآخر، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل. الذى كان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن. فأراد قابيل. أن يستأثر بها على أخيه. وأمره آدم أن يزوجه إياها فأبى. فأمرهما آدم أن يقربا قربانين الى الله كى يتبين الصواب منهما فقرب هابيل جذعة سمينة «شاة» وكان صاحب غنم وقرب قابيل حزمة من زرع ردىء زرعه. فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل وكان نزول النار على القربان علامة القبول فغضب قابيل وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختى. فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين. فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى فبعث آدم قابيل لينظر ما أبطأه؟ فلما ذهب إذا هو به. فقال له: تقبل منك ولم يتقبل منى. فقال: إنما يتقبل الله من المتقين. فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله»[3].

(١) المائدة ٢٧ - ٣٠

(٢) قصص القرآن ص١١.

(٣) قصص الانبياء - ابن كثير ص٨٥ - ٨٦.

أوحى الله إلى آدم ــ حتى يحدث التكاثر فتعمر الدنيا ــ أن يزوج كل غنى من توأم أخيه الأنثى. وحين أفضى آدم إلى ولديه بذلك، هبت عواصف النفس وبدأت الطبيعة البشرية فى إحتوائها على المشاعر المضادة.

وحدث الشقاق بين الأخوين. وانبرى عداء نفسى كان محوره تلك الأنثى الجميلة التى حاول ان يستأثر بها قابيل.

لقد ثار قابيل ثورة عارمة. وانفجر بركان الحقد على أخيه. وتمثلت أمامه الأنثى الجميلة فازداد تمرداً. وأبى أن يفرط فيها أو يتنازل عنها.

وساءل نفسه كيف يكون نصيبه أقل جمالا من أخيه؟ لماذا يتزوج الأقل جمالاً على حين ينعم هابيل بالأكثر جمالا وروعة!!

والمرأة فى القصة لم تقم بدور إيجابى يحسب لها، أو عليها. إذ لم تشر الروايات إلى موقف الأختين من هذا الصراع الذى دار بين الأخوين.

وتلك هى المرأة فلا يشترط أن تدلى بدلوها. أو تخوض هى غمار الصراع. يكفيها أن تنظر من بعيد إلى فلك الدائرة وهى مقتنعة أنها قطبها وبؤرتها. فصورة المرأة فى خيال الرجل -تثير- وتدفعه، وتغريه. فإذا وجد النفس الطليقة انساقت الصورة الخيالية لتشكل مسلك الذات وتحدد تصرفها. أما إذا وجدت نفساً عاقلة واعية مدركة وقفت الصورة عند حافة الرؤية ولم تتغلغل إلى الأعمق من الوجدان.

وهناك كانت الصورة الجميلة (ريحاً هوجاء تتقاذف النفس البشرية وقد توردها موارد الحتف والهلاك). ولا يزال الجمال مثيراً انفعالياً لكثير من المشاعر المختلطة.

لقد أثار الجمال الأنثوى حفيظة النفس -فجمح من جمح وأطاع من أطاع.

ولقد هدى الله آدم إلى مخرج من المأزق. فطلب منهما أن يقربا قرباناً إلى الله، ومن يتقبل الله منه يحصل على ما يتمناه وتكون الأنثى الجميلة من نصيبه. فيتحقق ما يتمنى ويشتهى.

وقدم هابيل قرباناً واختار أزكى ما عنده . وكان هابيل مؤمناً، سوى السلوك، محباً للخلق الكريم، صافى القلب. فتقبل منه الله على حين استشاط قابيل غضباً، وامتلأ قلبه بالحنق وأعمته الغيرة، وخلا قلبه من الخلوص إلى الله وتمرد على المواضعات الاجتماعية، وانطفأ الأمل فى قلبه وسيطرت عليه الأنانية وحب الذات، وقدم قربانه فلم يتقبل منه. وأخذه الجموح الانفعالى وهدد أخاه بالقتل الذى ونصحه ولكن البركان فى النفس يدمدم والغيرة فى القلب تشتعل. كيف يفوز هابيل بالأنثى الجميلة، على حين تكون الأخرى الأقل جمالا من نصيبه؟ ووقعت الواقعة. وتمت الجريمة وراح هابيل قتيلا، وسجل بمقتله أول جريمة وقعت على ظهر الأرض. وكان ذلك من أجل امرأة. بل بسبب امرأة جميلة. فلقد كان الجمال فتنة أدت إلى الصراع، فالجريمة ، ولقد ظل الجمال الأنثوى يحمل هذا الخطر إلى يومنا هذا.. وسيظل.

خيانة الأمانة

قرر القرآن أن الضعف من سـمـات المرأة ككائن بشـرى.. وأنها لا تختص به بذاتهـا.. إذ اشتركت مع آدم فى الفعل.. وحق عليهما معاً.. أن يوصفا بالضعف.. وأن يتحملا آثاره.. وأن يقوما بالدور الجديـد وينهضا بمسئوليته مـعاً.. ثم برز أثناء حركة الحياة وتنظيـمها ملمح آخـر ساهم فى تـشكيل الصورة.. وهو أن الأنـثى -وإن لم تدر- قد تكـون طرفاً فى صـراع رهيب يدور حولهـا وهى الغافلة عنه- البعيـدة عن فلكه الظاهرى.. وتأكد أن للجمـال فتنة على القلوب.. وأنه سبب فى مصارع الساعين إليه..

ونمضى مع السياق القصصى فى القرآن وهو يرسم لنا ملمحاً آخر للصورة.. ملمحاً يشكل خطأ فى التكوين العام.

وأهميـة هذا الملمح أنه يحدد مسئوليـة السلوك.. فالمرأة مسئولة عن ذاتهـا وعن تصرفـها ومعـتقدها، وكل ما تفـعله من خير ومن شـر.. ولن يعفى المرأة أن القدر أوجدها فى مـجال مفعم بالصلاح والتقـوى.. فماذا يفيدها.. صلاح البيئة إذا لم تـتأثر به؟.. وماذا يجديها ذلك كله إذا هى انحرفت وانساقت وراء جموحها العـاطفى أو وراء معتقد زائف يخالف الفطرة ويعاند أمر الله؟..

أن مبدأ التبعة الفردية يحددها هذا الملمح الذى نحن بصدده.

فالنساء مسئولات عن ذواتهن، ولن يعفيهن من التبعيـة أنهن زوجات نبى أو صالح من المسلمين.. فلا كرامة ولا شفاعة فى أمر الكفر والإيمان، وأمر الخيانة فى العقيدة حتى لأزواج الأنبياء»[1].

(١) الظلال جـ٦ ص٣٦٢١.

ويمثل هذا الجانب من الصورة كل من زوجة نوح وزوجة لوط.

★★★

دعا نوح قومه إلى التوحيد فأعرضوا عنه.. وأنذرهم عقاباً شديداً ينزل بهم فسخروا منه.. رغبهم في الجنة وحذرهم من النار فاستكبروا.. وظل نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الإيمان بالله ويوجه نظرهم إلى سر الوجود ودلائل القدرة الإلهية في الكون.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾(٢).

ولقد آمنت به قلة من الناس صدقوا برسالته، ثم ووجه نوح بسخرية من كبار القوم، وتهكموا به وهم يشاهدون ضعاف الناس وأراذلهم يتبعونه ويؤمنون بما يقول.. وتمادوا في غيهم حين جردوه من الفضل والتميز وبعد النظر.. وطالبوه أن ينبذ هؤلاء الضعفاء فلا يحق لهم وهم كبراء القوم أن يقرنوا في مجال العقيدة بهؤلاء الضعاف الأراذل!!

ولكنه تبين لهم أن دعوة التوحيد دعوة تشمل الجميع يستوي فيها الغني والفقير، الرئيس والمرءوس.. ومع ذلك ظلوا على لجاجهم واشتد الجدل وطالبوه بما يعدهم به من عذاب.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾(٣).

وظل نوح معهم يوضح وينذر ويجادل صابرا على عنتهم ولجاجهم -صامداً لما يبدر منهم من استهزاء وتهكم- يتمسك بأمل بعيد أن يتغير قومه ويؤمنوا بدعوته- إلى أن بدا له أن قومه لن يذعنوا أبداً لدعوته، وحين نفد مخزون الصبر دعا ربه أن ينزل عليهم العقاب.. فأوحى الله إليه أن يصنع الفلك..

قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(٤).

---

(١) الأعراف آية ٥٩.
(٢) سورة نوح ١٣ - ١٦.
(٣) سورة الشعراء ١١٤ - ١١٧.
(٤) سورة المؤمنون/ ٢٧.

وامتثل نوح للأمر الإلهي وأخذ يعمل في جد ومثابرة، نائياً بنفسه وبعمله عن الناس، ولكنه لم ينج من سخرية القوم وتهكمهم به. قال تعالى: ﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾[1].. ولكنه أعرض عن استهزائهم.

وجاء الطوفان وتفتحت السماء وتفجرت الأرض ومضى نوح بسفينته ومعه من آمن به، واعتلج صدره بالهم وهو يرى مكابرة ابنه -كما رأى مكابرة زوجته من قبل- وأوحى الله إليه أنه ليس من أهلك فقد حق عليه الكفر والطرد من رحمة الله- مثلما حدث لزوجته.. لقد خرجا من الأهل والنسب والدين.. فطردوا من الشفاعة، ولو كان بينهما وبين النبي رحم ونسب. «فلا تعد من أهلك إلا من آمن بك، وصدق برسالتك، واستجاب لدعوتك، هذا الذي تعده حقاً من أهلك وهو الذي وعدتك بنجاته»[2].

■ ولقد ضرب الله بزوجة نوح المثل في تبعة الذات فيما تفعله وتقوم به.. فلقد خانته وكفرت به. وسخرت منه وادعت -مع قومها- أنه مجنون. فلم يغن عنها زوجها النبي من الله شيئا وأخذها الله بذنبها.

قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾[3].

لقد ضرب الله هذا المثل تنبيها إلى أنه لا يغني في الآخرة أحد عن قريب أو نسيب إذا فرق بينهما الدين.

قال الضحاك عن ابن عباس «ما بغت امرأة نبي قط. إنما كانت خيانتها له في الدين»[4].

فالخيانة هنا لا يراد بها الخيانة في العرض والشرف بل في الدين.. ومن رأى أنها ارتكبت فاحشة الزنى فقد أخطأ.. لأن الله تعالى أكرم أنبياءه أن تتعاطى واحدة منهن الفجور بل هن -شريفات مصونات لحرمة الأنبياء[5].

.. ما الذي فعلته زوجة نوح حتى تبوء بغضب الله؟..

كان نبي الله نوح مثالا للرجل المصطفى لتبليغ الرسالة، وقد تجسدت فيه قيم الخير والحق،

---

(١) سورة هود ٣٨.
(٢) قصص القرآن ص٢٠
(٣) سورة التحريم آية ١٠.
(٤) مختصر ابن كثير جـ٣ ص٢٢٥ محمد علي الصابوني.
(٥) انظر صفوة التفاسير جـ٣ ص٤١١.

وسعى جاهداً وهو الزوج الكريم أن يهيء لأسرته جواً روحانياً نبيلا خالياً من الوثنية ومتصلا بالله عبادة ورجاء.. وجاهد قومه جهاداً شديداً.. وتمنى أن يجد السكن والمودة والرحمة فى بيته. ولا عجب فى ذلك فلقد وصفت الزوجة بالسكن لما تشعه من أمن وأمان ومودة ورحمة.. وهذا هو المنهج الإسلامى الكريم الذى اعتبرت فيه الزوجة السكن للزوج.

وكان عليه السلام حين يضيق صدره وهو يدعو قومه إلى الإيمان فيعمون ويصمون ويستغشون ثيابهم ويستكبرون.. يعود إلى بيته ظناً منه أنه سيجد المودة والسكن، والزوجة التى تقف معه تؤازره وتدفعه، وتمشى معه على نفس الطريق وبنفس المنهج الذى ارتضاه الله له.. ولكن ذلك لم يتحقق.

فلقد كان قوم نوح يذهبون إلى المعبد حيث توجد أصنام ودويغوث ويعوق وسواع ونسر -وكانوا من قبل رجالا صالحين، فلما ماتوا جزعوا لموتهم وأقاموا لهم التماثيل والأصنام، وكانت امرأة نوح مثل قومها تذهب إلى المعبد وتطيّب أقدامها وتدعو مثلما يدعو بقية القوم.. ولقد شاركت أهلها احتفالهم بالآلهة التى يعبدونها.

ومن ثم فقد فوجئت بدعوة نوح إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك.. ولم تدخر أقرب الناس من نبى الله نوح عليه السلام فرصة أو جهداً فى التصدى لدعوة الخير التى كان يدعو إليها، بل كانت تسعى حثيثة إلى الاساءة إلى الدعوة وإلى صد من يتساءلون عنها.. حتى أن ولدها كنعان قد تشرب عنها هذا الجحود وهذا العداء الشديد للدعوة الجديدة.

وكم طالباه -الأم وولدها- أن يكف عن الدعوة وأن يترك الناس لدينهم ودين آبائهم- ولم ييأس نوح من النصح لأهله الأقربين كما لم ييأس من دعوة القوم إلى الإيمان وإنذارهم «إنى لكم نذير مبين. ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم».

وأصرت المرأة على موقفها من الدعوة الجديدة وعاندت دعوة الخير التى جاء بها الزوج النبى .

وكانت تطلع قومها على سر زوجها، ومن يؤمن به ومَنْ من الناس يرتاد مجلسه، بل لقد حاولت مراراً أن تفت فى عضد النبى، وأن تنال من عزيمته حين تشير إليه فى تشبيط إن قلة جداً من الناس هم الذين تبعوك ولولا فقرهم ما ساروا معك.

بل وتمادت قائلة: أليس ذلك دليلاً على بطلان الدعوة؟ فما رأيت أحداً من الكبار تبعك وسار معك!!

ومضى نوح فى عزم لا يلين يدعو إلى التوحيد.. ولا يؤثر فيه قول قائل ولو كان أقرب الناس إليه.

ولم ينج نوح من سخريتها حين بدأ يجمع الأخشاب لصناعة السفينة -وتندهش المرأة قاصرة العقل.. أية سفينة سيصنعها ولا بحر ولا ماء.. أترى تسير السفينة على الرمال الجرداء؟. وحين يخبرها نوح أنها موقوتة بالطوفان.. استهزأت به واتهمته بالجنون.

وراحت زوجته تخبر سادات القوم.. بأن نوحاً حزين حزناً شديداً لما سيصيب القوم من أذى شديد.. ولقد كانت فرحةٌ كل الفرح وهي ترى هذا الحزن كله يسيطر على نوح.. ولم تكن بقادرة على إخفاء هذا الفرح.. فكانت تمضي إلى معابد القوم تشارك أهلها الإساءة لنوح والنكاية به والشماتة بما يقول وبما يفعل.. لقد خانت المرأة الأمانة الزوجية، وسارت على درب القوم الذي يؤدي لا محالة إلى الهلاك الشديد.

إن الزوجة لا تختلف كثيراً عما يجده من قومها عناداً، ومكابرة وتأبيًا على الهداية.. امرأة عنود تشهد نور السماء ومع ذلك تعاديه، امرأة هي زوج النبي ومع ذلك تكفر به وتستكبر.

لقد شعر نوح أنها انحرفت عن طبيعتها وعن الركون إلى رجلها القيّم عليها.

وقد تصبح الخيانة أمراً هيناً.. حين يكون الزوج رجلا من الرجال.. وفرداً عادياً من الأفراد.. ولكنها تصبح القمة في السوء -إذا جاءت الخيانة في حق الرسالة نفسها التي كان الرسول ينشرها- فتكون الخيانة كفراً. وقد كانت امرأة نوح كفارة به وبرسالته. لقد كذبته وكذبت برسالته)[1].

.. ولقد سئل ابن عباس عن خيانة امرأة نوح ما هي؟ فقال: كانت تقول زوجي مجنون.

وكان مصيرها الغرق.. ولم يغن نوح عن امرأته -رغم صلتها به- شيئاً.. فالعدالة الإلهية تأخذ المجرم بجريمته ولا تنظر في ذلك إلا إلى العدل في ذاته.

فالله حكم عدل ولا يؤاخذ أحداً إلا بذنوبه. والعبرة هي تقوى الله. قال تعالى: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

★★★

■ أما امرأة لوط فقد كانت من قوم لا يتعففون عن معصية، فلقد كانوا من أفجر الناس، يقطعون الطريق، ولا يستمعون لنصيحة. وكانت نفوسهم ظامئة إلى الإثم فاتبعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران دون الاناث وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين)[2] فلا يقربوهن.. وقد أشربت قلوبهم الموبقات، ففشت المنكرات وشاعت الفاحشة.

(١) في رحاب الأنبياء والرسل. د. عبدالحليم محمود ص٥٨.
(٢) قصص الأنبياء جـ٢ ص٢٦٨.

ولقد دعـاهم لوط عليه السـلام إلى التوحـيد، ونهاهم عن تعـاطى المحرمـات والفواحش، ولكنهم تمادوا فى ضلالهم. بل لقد سولت لهم نفوسهم أن يخرجوا لوطاً ومن معه فهم قوم يتطهرون.

قـال تعـالى: ﴿ وَمَـا كَـانَ جَـوَابَ قَـوْمِـهِ إِلاَّ أَن قَـالُوا أَخْـرِجُـوهُم مِّن قَـرْيَتِكُمْ إِنَّهُـمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[1].

.. ودعا لوط ربه أن ينصره على هؤلاء القوم الفاسدين، وأن يحل بهم العذاب.

واستـجاب الله لدعوته، فبـعث رسله الكرام وملائكته العظـام إلى أهل هذه القرية الظالم أهلها لينزلوا بهم ما يستحقون من غضب الله.. ولقد أخبروا إبراهيم عليه السلام بهذه المهمة فحزن حـزناً عظيماً إلا أنهم أنبأوه أن لوطـاً لن يصيبه أذى ولن يمسه عـذاب.. وسيكون هو وأهله الناجين إلا امرأته فإن هواها مع قومها ورأيها تابع لهم.

ويقول المفـسرون: إن الملائكة بعـدما خـرجت من عند إبراهيم ذهبوا إلـى أرض سدوم فى صورة شـبان حـسان.. وفـيمـا هـم يهمـون بدخول القـرية عرضت لهم جـارية تستـقى الماء فسألوها أن تضيفهم. فأمـهلتهم حتى تخبر أباها، وكان لوط هو الوالد، ودهش لوط من هذه المفاجأة واحتار فى قبول ضيافتـهم- وجعل -كما يذكر قتادة- يعرض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفـون عن هذه القرية وينزلون فى غـيرها. وأخيـراً قبل ضيـافتهم وسـار بهم حتى نزلوا بداره. وتكتم الأمر تكتما شديدا خوفاً مما يمكن أن يفعله قومه.

وهنا قامت امرأة لوط بالفعل المنكر.. حيث دلت القوم على الضيوف (فخرجت امرأته فأخبرت قومهـا فقالت: إن فى بيت لوط رجالا ما رأيـت مثل وجوههم قط)[2]. وفزع لوط حين رأى القوم وناشدهم تقوى الله، ودعاهم إلى الكف عن السوء ولكنهم لم يستمعوا إلى نصيحته.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[3].

ولما رأى الملائكة ما هو فيه أخبروه أنهم رسل ربه لإنقاذه ودفع العدوان عنه وإنزال غضب الله بهم. وأمرت الملائكة لوطاً أن يسرى هو وأهله بليل. ولا يلتفت أحد فيصيبه عذاب الله. ولكنه نهى عن اصطحاب زوجتـه معه فهى ليست من أهله. فسيـحل بها ما يحل بالقوم من عذاب. وحين فارق لوط قومه زلزلت الأرض زلزالها وجعلت الملائكة عاليها سافلها. وحل بهم العذاب الأليم.

---

(١) سورة الاعراف اية ٨٢.
(٢) المرجع السابق ص٢٧٧.
(٣) سورة هود اية ٧٨.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[1].

ويقال إن امرأة لوط خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة، وسقوط البلدة التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً وقالت: واقوماه. فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بأهلها، إذ كانت على دينهم، وكانت عيناً لهم على من يكون عند لوط من الضيفان.

وحين علم أهل سدوم أن امرأة لوط كفرت بما جاء به زوجها ولم تتبعه وأخذت تخبرهم بمن تبعه، تمادوا فى ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم بل حدثتهم نفوسهم الأمارة بالسوء، وسولت لهم عقولهم التى أضاعها العبث وعشش فيها الشر، أن يخرجوا رسولهم عليه السلام ومن تبعه من قريتهم.. وكان عناد أهل سدوم لدعوة لوط عليه السلام يملأ صدره حزناً على هؤلاء الذين يصرون على كفرهم ولا يريدون أن يتطهروا من أدران الرذيلة والفساد[2].

وأخذت زوجة لوط تشارك قومها فيما يفعلون وتخبرهم بوصول ضيوف زوجها من الشباب والرجال، حتى حلت اللعنة عليهم.

قال تعالى: «ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين».

إن ما فعله قوم لوط -اللواط- فعل يهتز له عرش الرحمن، والواقع فى هذا الفعل ملعون ومطرود من رحمة الله، وهو من السبعة الذين يلعنهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة.

ولقد وصف القرآن الكريم امرأة لوط بأنها عجوز قال تعالى: «ونجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين».

ومعنى ذلك أنها تجاوزت سن اليأس، ومنطق الحياة يفترض فيها الهدى والاستقامة والتوبة عما اقترفته من ذنوب وآثام.. ومع ذلك وبالرغم من كبرها إلا أنها ظلت على ولائها لفسادها لطبع سيء فيها، وواكبت قومها فى ضلالهم وفسادهم وانقادت إلى إغراء الشيطان الذى يتأجج بالشر والخطيئة والإثم.. والخروج على ما تميل إليه الفطرة السوية.

لقد آثرت متابعة قومها فى الكفر وجحودهم للحق، على الإيمان بدعوة زوجها ومؤازرته، ألفت فجورهم وفحشهم وتنكرت للهدى والنور والطهارة.. والتقوى، واستحقت بذلك أن تكون مثلا مضروباً للضلال الشديد.

(١) سورة هود آية ٨٢.
(٢) نساء أهل النار -عبدالعزيز الشناوى ص٣١.

إننا هنا أمام صورة امرأة تخالط نبياً كريماً. وتسكن إليه وتتفيأ ظلال النبوة فى بيته وتشهد أنوارها فى أيامها ولياليها. وكان من الطبيعى والمرجو أن تكون هذه المرأة أول المستجيبين له والمؤازرين لدعوته، ولكن العكس هو الصحيح، فلقد وقفت فى عناد وتكبر مع المخالفين له، والمتحرشين، والمستهزئين به، فاستحقت عقاب الله وعذابه.

ولقد صار هذا النوع للمرأة مثلا مضروباً لكل من يضل عن الهدى ويركب الطريق الضال، وبين يديه وفى بيته المصباح الموجه إلى مسالك الحق والخير والأمان والإيمان.

لقد أبرزت القصة القرآنية هذا النوع من النساء السفيهات اللائى غلب عليهن الهوى الفاسد فاستحوذ عليهن الشيطان وألقين بأنفسهم فى مهاوى الضلال والكفر بالرغم من أنهن أصحاب بعولة نبوية تتلقى الوحى والدعوة، وقريبات ولصيقات من أصحاب الرسالة [1].

(١) نظرات فى قصص القرآن جـ ١ ص ١٠٦.

الإيمان بالله وتحرير الإرادة

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

تلك امرأة نموذج للمؤمنة العاقلة، عرفت طريقها إلى الحق فهداها الله إلى الإيمان ونبذ الشرك الذى يمثله زوجها فرعون مصر.. فلا بطشه أخافها، ولا سلطانه العاتى وقف فى طريقها. (فما أن استبان لها الهدى من دعوة موسى حتى أسرعت إلى النور وخرجت على سلطان زوجها الإله المزيف)[2].

لقد تجلى العقل الراشد، والبصيرة النافذة، والإرادة القوية والفطرة السوية. لقد آمنت بموسى، منذ أن احتضنته وربته وتبنته، وهيأت له سبل الحياة الكريمة.

ترى ما الذى قامت به تلك المرأة المؤمنة لتستحق تلك المنزلة العالية من الجنة؟

طغى فرعون.. وعلا فى الأرض واستكبر، واستضعف طائفة من بنى إسرائيل التى عاشت فى مصر.. وأذلهم واستعبدهم.. وأمر بقتل أبنائهم ـ فلقد أخبر أن واحداً منهم سيخرج مبشراً بدين جديد، وسيكون على يديه هلاكه وموته.. ولقد أمر رجاله بأن يذبحوا كل ذكر تلده امرأة.. وفى هذا الجو الرهيب من الخوف والرعب حملت الأم بموسى، فأصابها الهم والحزن وتكتمت أمرها، حتى إذا ولدته، هيأت له التابوت ووضعته فى داخله، ثم ألقت به

(١) سورة التحريم آية ١١.

(٢) عشرون امرأة فى ضوء القرآن الكريم - عبدالمعز خطاب ٢٩.

فى اليم وأخذ الماء الصندوق حتى دخل بين الأشجار عند دار فرعون.. ورأت الجوارى اللائى كن يغتسلن الصندوق يتهادى فوق الموج فأثار فيهن عجباً ودهشة، ورحن يخمن ما بداخله. وأخيراً التقطنه ولم يجسرن على فتحه. وانتهى الرأى إلى أن وضعنه بين يدى ـ امرأة فرعون ـ آسية بنت مزاحم ـ سيدة القصر.. (فلما فتحت الباب، وكشفت الحجاب ـ رأت وجها يتلألأ بتلك الأنوار النبوية.. فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً) [١].

لقد أشفقت عليه. وأحبته ووطنت العزم على أن تنقذه من المصير المؤلم وتبعده عن بطش فرعون.. وذهبت بالطفل الجميل إلى فرعون.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾[٢].

وحين رأى فرعون الطفل أراد أن يذبحه جرياً على العادة التى استنها مع بنى إسرائيل ولكن آسية ـ المرأة التى غزا قلبها الحب، والإيمان ـ توسلت إليه.. واستوهبته منه ورجته أن يتركه لها.. يؤنس وحدتها وتقر به عينها.. ويجيبها فرعون قائلا ــ وهو يرى تلك اللهفة ــ قد يكون الطفل قرة عين لك.. أما أنا فمن يدرى؟.. وكأن هاجساً خفياً يهجس له بأن ثمة خطراً يكمن فى وجود الطفل.. ونجحت المرأة المؤمنة فى إنقاذ الطفل من مصير مجهول واستخلصته لنفسها عوضاً عن حرمانها من الولد، وأغدقت عليه الرعاية والاهتمام وحسن التربية.

وتشاء الأقدار أن ينشأ موسى فى بيت عدوه. وتصبح امرأة فرعون هى الراعية له، المؤمنة به..وتنقلب سعادة المرأة إلى بلاء حين كشفت عن حقيقة الإيمان المتربع فى قلبها وأعلنت إيمانها بموسى، وعز على فرعون أن يرى زوجته تؤمن بموسى وتخرج عن إرادته، فأنزل بها العقاب الشديد، ولكنها استعذبت الآلام، وطلبت من الله أن يعوضها خيراً وأن يبنى لها قصراً فى الجنة بدلا من هذا القصر الفاسد الذى يرتع فيه الشرك ويمرح الضلال.

وكانت امرأة فرعون تعذب فى الشمس، وعذبها فرعون فشد يديها ورجليها بالأوتاد وهى صابرة، فرأت بيتها فى الجنة فضحكت حين رأته، فقال فرعون ألا تعجبون من جنونها.. إنا نعذبها وهى تضحك.. فقبض الله روحها وهى فى الجنة [٣].

ولقد وضحت الأحاديث مكانة آسية امرأة فرعون ـ وأنزلتها منزلة عالية فعن ابن عباس قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض أربعة خطوط فقال: أتدرون ما هذا؟

(١) قصص الأنبياء.
(٢) سورة القصص آية ٩.
(٣) انظر مختصر ابن كثير جـ ٣ ص ٢٢٥.

قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل نساء أهل الجنة، مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون) (١).

لقد استحقت امرأة فرعون أن تكون مثلا مضروباً للعقل الحر والإرادة المتحررة. ولعل القرآن ـ وقد سكت عن ذكر اسمها ـ يوحي بأن تكون رمزاً وإشارة إلى جنس المرأة.. لكونها مؤهلة بكل ما أهل به الرجل من عقل وإرادة حرة.

ولقد كانت ـ كما تحكي الروايات ـ تحدب عليه، وترعاه، وتحميه من كل أذى يمكن أن يلحق به.. كما كانت حريصة ألا تغضب الفرعون فيما يتصل بالطفل، وكثيرا ما منعت أذى كان يمكن أن يلحق به، وتهديدا بالقتل كان دائما مسلطاً كالسيف المجرد.. ذلك أنها لم تنس أن وجود الطفل في قصر فرعون كان نزولا على إرادتها، على حين كان فرعون يعارض.. وبداخل نفسه حذر وخوف.. فمن يعرف ما الذي تخبئه الأقدار وراء هذا الطفل؟

ومن ثم عاش الطفل في القصر، ونشأ نشأة مترفة حتى أن البعض كانوا ينادونه بابن فرعون.. ومن ثم لم يكن عجيباً أن ينسى فرعون حذره ويداعب ويلاعب الطفل حتى شب أمام عينيه فتى ناضجاً.

تقول الرواية إن فرعون ـ ذات يوم ـ وضع موسى ـ الطفل ـ في حجره، فأقبل موسى على لحية فرعون، وجذبها جذبة شديدة حتى آلمت فرعون كثيرا.. واغتاظ فرعون غيظاً لم يقو علي السيطرة عليه.. خاصة أنه سمع من الطفل أو خيل إليه.. أن الله سيصرعه ويعلو عليه. وهم فرعون بقتل الطفل وأقبلت امرأة فرعون تسعى إليه وتدفع عن الطفل ما يمكن أن يلحق به.

قالت في عتاب: ما بدا لك في هذا الصبي الذي وهبته لي؟

قال: أما ترين ما فعل؟ أنه يكرهني، بل يكاد يقول كلاماً يتوعدني به.

وأقبلت عليه تسترضيه.

قالت: ألا ترى أنه طفلٍ لا يعقل، اجعل بيني وبينك أمراً يوضح ذلك.

ثم جاءت بطبق فيه درة وجمرة ووضعته أمام الطفل وقالت لفرعون: انظر: إنه لا يفرق بينهما، ومد الطفل يده ليلتقط الدرة، فحول جبريل يده إلى الجمرة، وحين تناول الجمرة احترقت يداه، واحترق لسانه لأنه دفع بها إلى فمه كعادة الأطفال.

(١) قصص الأنبياء ص ٣٦١.

☆ أخرجه النسائي وورد في صحيح البخاري.. كتاب المناقب.

وقالت امرأة فرعون: أرأيت أنه لا يفرق بين الدرة والجمرة.. فضحك فرعون وانصرف عنه، بعدما كان قد هم بقتله..

وظل موسى يعاني من لثغة لازمته حتى استجاب الله دعاءه حين خاطب ربه قائلا: ﴿واحلل عقدة من لساني (٢٧) يفقهوا قولي﴾ [١].

ولقد سجل القرآن لهذه المرأة دورها العظيم الذى قامت به فى إنقاذ موسى وتربيته بالرغم من جبروت زوجها الفرعون، فما أعظم هذه النفس المؤمنة، وما أروع ذلك الدور الذى قامت به وما أجمل الرمز الذى تمثله. ولقد قرنت الآيات بين امرأة فرعون ومريم ابنة عمران مما يدل على المكانةالعالية التى وصلت إليها واتصافها بالطهر والقنوت.

لقد كانت امرأة واحدة فى مملكة عريضة قوية.. وفى وسط ضغط القصر وضغط الملك والحاشية والمقام الفرعونى.. فى وسط ذلك كله..تتجه إلى الله وهى تواجه وحدها هذا الخصم من الكفر الطاغى.

إنها (نموذج عال فى التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات، وكل هذه الهواتف، ومن ثم استحقت هذه الاشادة فى كتاب الله الخالد)[٢].

لقد استطاعت امرأة فرعون أن تحرر فكرها ووجدانها من كل الأواصر والمؤثرات والقيود - فترفض أن تسير فى ركاب زوجها وأن تنساق فى تيار المجتمع الذى تعيش فيه، بل تعلن عن موقفها فى ثبات وإيمان..فكانت مثلا للشخصية المستقلة فى الإيمان بالمبادئ والقيم.

(١) طه ٢٧ - ٢٨ وانظر تاريخ الطبرى جـ ١ ص ٣٩٥.
(٢) ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٦٢٢.

الصبر على البلاء

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [1]

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [2].(صدق الله العظيم).

★★★

تتواجد على أرض الواقع وبين البشر ظواهر الخير والشر والخلق الجميل والخلق القبيح ويتجاور النعيم والشقاء، والسعادة والبؤس، وقد نلمح من خلال هذه الحركة وهذا التضاد مظهرا بلغ الغاية فى الوفاء وفى الصبر فنسعد بما فيه من قيم نبيلة ويصبح نموذجاً للفضيلة كما نلمح أيضاً مظهراً بلغ الذروة فى الغدر والخيانة، فنحزن لافتقاد القيمة.

ونحن الآن مع نموذج الوفاء والصبر على البلاء الذى بلغ الذروة والمكانة العالية.

إن الصبر على الشدائد صفة تلتصق بالمؤمن الصادق الإيمان.. كما أن الإبتلاء اختبار لعمق الإيمان، ولصلة الإنسان بربه، ولمدى قدرته على التحمل.. كما أنه تطهير للبدن من

(١) سورة الأنبياء ٨٣ - ٨٤.

(٢) ص، ٤١ - ٤٤.

الانفعالات والأمراض الخبيثة، وتطهير للنفس من الرغبات الهابطة.. أنه اختبار للمعدن الحقيقي.

وهذا الابتلاء اختبار وامتحان من الله. وهو يتمخض بالنسبة للصالحين ـ فما بالك بالأنبياء ـ عن رضى الله الذي يغمر الصابرين وعن رحمة الله التي تحيط بمن ينجح في الاختبار، وتتجلى عليه النعم الإلهية، وتتحقق السعادة. ولقد نجح أيوب في الاختبار فكشف الله عنه الضر.

ولقد نجحت امرأته في الصبر على البلاء فكرمها الله. كان أيوب عليه السلام كثير المال والأنعام والأراضي (فسلب ذلك منه وابتلى في جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بهما. وهو في ذلك كله صابر محتسب، ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره، وصباحه ومسائه»[1].

وطال مرض أيوب حتى تخلى عنه الأهل ـ فكان ذلك ابتلاء آخر يضاف إلى ما ابتلى به سابقا.. فلقد أتاه الله ثراء عريضا، ومنحه الله نعمة القوة والصحة والوسامة، ووهبه زوجة جميلة صالحة، ووهبه الأولاد والذرية الصالحة، ولم يتكبر أيوب بما حازه من نعم الله الكثيرة وإنما شكر الله سبحانه ثم ابتلى أيوب.. فهلك الزرع والضرع والولد.. وتفرق عنه الأهل والأصدقاء.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل» (سنن ابن ماجة) حديث رقم ٤٠٢٤.

وقال صلى الله عليه وسلم: «يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه» (سنن ابن ماجة) حديث رقم ٤٠٢٣ (*).

وتقول الروايات إن إبليس سمع الملائكة يمتدحون أيوب.. بأنه المؤمن العابد القانت المبسوط له في الرزق.. وساء إبليس أن يكون رجل في الأرض يعبد الله كما يعبده أيوب، فحاول إغواءه، ولكنه وجده من عبادالله المخلصين، الذين ليس للشيطان عليهم سلطان.. فرجع إلى ربه قائلا: إن أيوب يعبدك ياالله ثمنا لما منحته من مال وبنين.. وطمعاً في أن تبقى عليه ماله.. فعبادته مشوبة بالرغبة والرهبة.. وأخذ إبليس الاذن من ربه.. بالابتلاء وفي كل مرة يصمد أيوب أمام المحن والبلاء ويتضرع إلى ربه شاكرا إياه، صابرا على ما ابتلى به.. حتى رجع إبليس إلى الله يقول: «يارب لقد ذهب المال عن أيوب وفني الولد، ولكنه لا يزال

(١) قصص الأنبياء جـ ١ ص ٣٦٩.

(*) وروى نحوه الترمذي في كتاب الزهد رقم ٢٣٩٨.

فى عافية من بدنه، وأنه ليعبدك أملا فى أن يعود المال ويرد الولد، ولكن سلطنى على جسمه، وأنا زعيم أنه لو مسه الداء لأهمل فى عبادتك وشغلته أسقامه، فأراد الله أن يجعل من أيوب عبدا مؤمنا، صابرا شاكرا تكون قصته عبرة للمصابين وعزاء للمكروبين، وليكون المعلم فى الصبر والمثل الأعلى فى الإيمان.

وسمح الله لابليس أن يفعل بجسده ما يشاء، ولكن بشرط ألا يقترب من قلبه ولسانه.. فذهب ابليس عن كيد ونفخ فى أيوب فاستحال سقيما مريضا، مدنفا، عليلا، ولكنه ما ازداد إلا إيمانا، وما ادرع إلا صبرا وحزما، وكلما ألح عليه الداء والسقم ازداد شكره واذعانه وتقوى إيمانه ويقينه»[1].

.. وانصرف الناس عنه ـ الأهل والأقرباء والأصدقاء.. أما زوجته الوفية الصابرة، فقد لازمته ملازمة تامة (وكانت الوحيدة التى حنت عليه طيلة ابتلائه. فقد كانت تقدر حق الزوجية كل التقدير وتقوم بواجبها خير قيام إنها تذوقت معه السعادة فى أيام نعمته وها هى تتوفر بكل جهدها عليه فى أيام ابتلائه [2].

وكانت المرأة الصالحة تتردد عليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء الحاجة، وتبذل الجهد من أجل المصلحة والمساعدة، وكانت وحيدة تقوم بذلك كله بعد أن ضاع المال والولد.. فضعف جسمها وقل المال الذى كان بحوزتها، وتغيرت حالتها، واضطرتها الظروف أن تعمل خادمة بعد أن كانت مخدومة، وأن تلتمس الرزق فى البيوت، بعد أن كانت ترفل فى ثراء ونعيم. لقد خرجت تلتمس الرزق بالخدمة والعمل، فلابد لأيوب من طعام يقيم به أوده، ويساعده على بلاء المرض.

قال السدى: تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، فلما طال عليها.. قالت: يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك فقال:لقد عشت سبعين سنة صحيحا فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزعت من هذا القول وظلت على خدمته، وتسلحت بالصبر.. فلابد له من طعام ورعاية ولا أحد يقوم بذلك سواها.

وأشيع حول الزوجة الصابرة أن من يتعامل معها سيناله من البلاء ما نال زوجها أيوب وحل به الشقاء.. وحزنت المرأة حزنا شديدا وهى تتردد على الأبواب ولاباب يفتح لها وأهمها الألم. أيوب مريض ويحتاج إلى طعام وكيف السبيل؟ وأمضها أن ترى أيوب جائعا وهى لا تملك من أمر نفسهاشيئا.. ففكرت كيف تخرج من هذا المأزق، ومن هذا البلاء الجديد.

---

(١) قصص القرآن ص ١٩٥.

(٢) فى رحاب الأنبياء والرسل ص ١٢١.

لقد كانت امرأة جميلة قسيمة مليحة الوجه ذات شعر طويل جميل يضرب به المثل.. ورأت في وسط المحنة أنه لا قيمة للجمال ولا للشعر وحياة زوجها في خطر داهم!!

وحينئذ ذهبت إلى بعض بنات الأشراف الأثرياء، وباعت وابتاعت باحدى ضفيرتيها طعاما طيبا كثيرا، ثم عادت في الغد وباعت الضفيرة الأخرى بطعام طيب كثير.

يقول ابن كثير: فأتت به أيوب فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره فقالت: خدمت به أناساً وحلف لا يأكل منه حتى تخبره من أين هذا الطعام؟ فكشفت عن رأسها محلوقا، قال في دعائه: «رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين».

ولعل أيوب عليه السلام لم يقلها من أجل نفسه، وإنما قالها من أجل زوجته الوفية الصابرة التي لم تخنه، أو تتركه في محنته، قالها من أجل اخلاصها، من أجل الجميل الذي أسدته واستجاب الله للدعاء.. وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف عنه السوء.

وكان أيوب يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فهمه ذلك وآلمه. ذلك أن عجزه شديد ومرضه عظيم فأوحى الله إلى أيوب وهو في مكانه أن (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) وامتثل أيوب فانبع الله له عينا باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها، ويشرب منها، فأذهب الله ما به من أذى وسقم.. وأبدله الله صحة ظاهرة وباطنة، وجمالا تاما، ومالا كثيرا، حتى صب له من المال صبا.

وحين استبطأت امرأة أيوب زوجها، مضت إليه.. والخوف يساورها من أن يكون قد مسه السوء. وكان أيوب قد ألبس حلة من الجنة.. فتنحى في ركن وجلس فلما جاءت امرأته لم تعرفه.

فقالت: يا عبد الله أين ذهب هذا النبي المبتلى الذي كان ها هنا؟

لعل الكلاب ذهبت به أوالذئاب.

وظلت تكلمه وهو صامت

ثم قال: ويحك أنا أيوب

قالت: أتسخر مني يا عبدالله؟

قال: ويحك أنا أيوب قد رد الله على جسدي

وفرحت فرحا شديدا.. أن من الله على زوجها بنعمة الصحة بعد المرض وحمدت الله على ما رأت من نعيمه الذي يعطيه خالصا للصالحين من عباده.

ثم أوحى الله سبحانه إلى أيوب «وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب».

ومسك أيوب حزمة من القش ليضرب بها زوجته، ذلك أنه كان قد حلف ليضربن امرأته مائة سوط، وهذه رخصة لعبده ورسوله أيوب عليه السلام.

وقيل أن سبب هذاالحلف الذى حلفه أيوب وقد كان غاضبا هو بيع زوجته لضفائرها، وقيل لأن الشيطان عرض لها فى صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربنها.

ولا شك أن الضغث «حزمة من القش» فيه تخفيف من أجل هذه المرأة الصابرة المحتسبة. البارة، الوفية.

والصبر (كما يرى سيدقطب رحمه الله) هو «الإشارة إلى الطريق المطروق فى حياة الرسل، الطريق الذى يضمهم أجمعين فكلهم سارفى هذا الطريق، كلهم عانى، وكلهم ابتلى وكلهم صبر، وكان الصبر زادهم جميعا، وطابعهم جميعا، كل حسب درجته فى سلم الأنبياء.. لقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة بالابتلاءات، مفعمة بالآلام، وحتى السراء كانت ابتلاء وكانت محكا للصبر على النعماء بعد الصبر على الضراء، وكلتاهما فى حاجة إلى الصبر والاحتمال»[1].

---

(١) الظلال جـ ٥ ص ٣٠١٦.

العقيم الغيور والولود الصابرة

انفعـال الغيرة، انفـعال مركب، يحـمل فى طياته أخلاطا مـن الخوف والقلق والأثرة. وهو انفعـال يؤلم صاحـبه وخـاصة حين يتـأكد الشـعور بالخوف من ضياع شىء مـا أو افتـقاد الاهتمـام أو التوجس ممن يؤثر على المكانـة والمنزلة.. والغيرة دافع مكبـوت يحدث صـراعا مسـتمرا فى أعـماق النفس يستنزف الطاقـة النفسيـة ويؤدى إلى الهيجـان النفسى.. ومن ثم يتلون السلوك بهـذا الكبت الانفـعالى حـتى لا تقـوى الذات على تحمـله فيـخرج فى فـورة انفعالية مدمرة.

والغيرة بين النساء مظهر سلوكى عام ـ فالمرأة التى حرمت من الولد تغار من المرأة الولود.. فإذا اجتمعتا فى بيت واحد وتحت قوامة رجل واحد.. بلغت الغيرة حدا يصعب معه التوافق والتكيف.. ويتـرتـب على هذا الانفعال أحـد أمرين: تنمـية سلوك ودى تجاه الآخـر أو الحاق الضرر به.. وقـد يجتمع الأمران مـعا..فالغيـرة «أو العداءالمكبوت الذى يظهر بـصورة مودة مبالغ فيها، هو أحد نتائج الكبت التى تعـرف بالتحويل العكسى حيث تظهر النزعة المعارضة للنزعة التى كـبتت بشكل مُـغالَ فيـه فقد يظهـر الحب المكبوت بصورةعـداء شديد) [1] وهو تلوين مخادع للانفعال الحقيقى.

ويرى الإمام الغزالى أن الخوف ـ وهو أحد ملامح الغيرة ـ هو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه، وهو الهم فى رأى ابن حزم الذى يكون وراء معاناة الإنسان النفسية. وهو ناتج

(١) الشخصية والصحة النفسية. د. عثمان فراج ص ١١٠.

عن خبرة مؤلمة تصيب الإنسان.. كفقد الحب مثلا.. أو الشعوربالدونية والنقصان.. أو المنافسة حول شيء معين أو مكانة ما أو حول شخص ما.

وفى المقابل انفعال الغيرة يعمق الشعور بتأكيد الذات ـ الناتج عن فعالية الشخصية ورضاهاعن الدور الذى تقوم به.. ويصبح التكيف والتوافق النفسى والمجالى ملمحا انفعاليا يحدد سماتها.. ويلون سلوكها انطلاقا من الإيمان بالدور الذى يحدد لها حركة المجال السلوكى والبيئى ومن ثم تتناسق الدوافع الباطنية مع الحركة الخارجية.. وتتقبل الأمور فى رضى وسكون نبيل وتتبدى وحدة السلوك واستقراره فى توجه الجهد لتنفيذ ما يراد منها بكل ما أوتيت من جهد.. لاسعاد الغير واسعاد نفسها أيضا.. ومثل هذه الشخصية المتوافقة لا تخلو من صراعات نفسية.. ولكنها قادرة على انتخاب الحسن من الفكر والسلوك فى ارادة قوية، وصبر مكين، وإذعان لقوى ترى أن الإذعان لها طريق موصل إلى تحقيق الدور الفعال المنوط بها.. ومن ثم يتحقق التكيف الذى هو حالة التوافق بين الفرد وبيئته، ويتعدل السلوك وفقا لدرجة الاستجابة للموقف والقدرة على اشباع الدوافع.

★★ دعا إبراهيم عليه السلام قومه إلى التوحيد الخالص.. وتخليص عقيدة الألوهية من كل أنواع الشرك، كعبادة الأصنام والملائكة والكواكب ـ وتبرأ من قومه وترك بابل موطن الدعوة واتجه إلى الشام.. وكان يرافقه زوجته سارة التى آمنت به وابن أخيه لوط عليه السلام.. وانطلق الثلاثة في رحلة إلى الله.

قال تعالى:﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

كانت سارة ابنة عم إبراهيم عليه السلام، وكانت ذات جمال باهر، صالحة تقية ملتزمة بدينها مهاجرة إلى ربها وفية لزوجها. لازمته فى كل مكان ذهب إليه. ارتحلت معه وقطعت المسافات وطوت الصحارى والفلوات.. وهى كما هى ملتزمة بدينها، محبة لزوجها وشاءت إرادة الله ـ أن يحل بأرض الشام جدب.. إذ أمسكت السماء مياهها وضنت به ـ وضاقت سبل الحياة، وطال الجدب كل شىء.. وأضحت الحياة عسيرة.. فلا ماء، ولانبات ولاثمر.. فاتجه إبراهيم مهاجرا بزوجته إلى مصر.. حيث رخاء الحياة ونعيمها.. وأقام إبراهيم وزوجته فى مصر ـ وكان يدعو إلى الله ـ وكان يعمل بالتجارة وحظى بمكانة طيبة.. إلا أن أحد الوشاة أبلغ الملك.. بأن إبراهيم دخل البلاد ومعه امرأة من أحسن الناس.. وكانت محنة واجهت سارة وخرجت منها منتصرة موفورة الكرامة بإذن ربها.

(١) سورة الانبياء اية ٧١.

واشتاق الملك أن يرى هذه المرأة التي لم تر عين مثلها جمالا... فأرسل رسوله إلى إبراهيم يستدعيه: وسأله الملك عن الصلة التي تربط بينهما - إبراهيم وسارة -. وهل ثمة قرابة تجمع بينهما.. ويفطن إبراهيم إلى ما توسوس به نفس الملك وعرف مقصده وأدرك أنه إن أخبره بالحقيقة فسوف يسئ إليها ويوقع بينهما، ويفرق بينهما حتى تخلص سارة له.. مستأثرا بها، وظل إبراهيم يفكر حتى فوجئ بالقول الحاسم والرد القاطع: من هذه التي معك يا إبراهيم؟.. وخرج إبراهيم من تفكيره وقال في تؤدة: إنما هي أختي.. قال الملك في ود ظاهر وقد فهم من الجواب - أنها ليست بذات بعل - : ارسل بها يا إبراهيم ولك المكانة .ورجع إبراهيم إلى زوجته سارة وأخبرها وقال : (لاتكذبي قولي فإني قد أخبرته أنك أختي.. فلما دخلت عليه قام (الملك) إليها..فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط على الكافر..)[1] وكلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها ودعائها.. وكان يعتريه - حين يقترب منها - اضطراب يشمله حتى أوجس منها خيفة - وآوى إلى فراشه ورأى رؤية لاح له فيها وجه الحق، وعرف أن لها بعلا وأن عليه ألا يمسها بسوء، فأطلق سراحها ووهبها «هاجر»..وأصدر أوامره إلى بطانته مذعنا: «أرجعوها إلى إبراهيم واعطوها هاجر».

وأقام إبراهيم وزوجته في مصر ما شاء الله لهما أن يقيما حتى إذا أحس من القوم جفوة، عاد إلى أرض الشام محملا بالمتاع والأنعام والمال الكثير، وفي صحبتهم هاجر المصرية.

وبعد أن استقر بهما المقام في فلسطين، وهدأت الأمور شعرت برغبة إبراهيم في أن يكون له ولد، يتطلع إليه ويسعد به.. ولقد امتد بها العمر وأعجزتها الشيخوخة من تحقيق هذا الحلم الجميل، لقد أدركت أن حياة بلا ولد حياة ناقصة من عناصر البهجة (ورأت أن حياة الدعوة محتاجة إلى ولد يشرب مبادئها، ويشب في جوها، ويسير على قواعدها، ثم يتابع الرسالة ويحمل الدعوة بعد أبيه)[2].

وطافت بذهنها صورة هاجر.. خادمتها القبطية وتساءلت لم لا يتزوجها إبراهيم؟ وأحست برضى داخلي وهي تتصور خادمتها زوجه لبعلها إبراهيم.. وابتسمت حين أدركت أن الكلمة ستظل لها وأن سيادتها عليها لاتنفك قائمة، فهي صاحبة البيت وربته.. وهي المتكرمة بتزويج إبراهيم، وهي المتفضلة على هاجر بهذا الشرف.. وذهبت على التو إلى إبراهيم وعرضت عليه أن يدخل بهاجر.. وأكدت له أنهم في حاجة إلى ولد يشيع البهجة والسرور في حياتهم.

(١) قصص الأنبياء جـ ١ ص ٢١٤.

(٢) في رحاب الأنبياء ص ٨٥

وتم الزواج، وحملت هاجر.. وبشعور الأم التى تحتضن فى بطنها بشارة حريتها وكرامتها.. أقبلت على الحياة حريصة كريمة.. إن الحمل هو وسيلتها إلى علو المكانة ورفعة المنزلة، وهو الذى سينقلها من كونها خادمة إلى امرأة كاملة السيادة والحرية.. وطافت الأحلام فى عقل الأم، غداً سأصبح أماً، وسيصير إبراهيم أباً، وتتوثق الصلة.. وتتماسك.. وحدثت نفسها بأنها لن تكون أقل مكانة من سارة.. بل لماذا لاتتفوق عليه- وقد أتت بما عجزت عنه سارة. لقد غمرتها السعادة.. كل السعادة.. إنها ستعطى إبراهيم ماتمناه حين اتجه إلى ربه متضرعاً (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)[1].

وتقول الرواية إن هاجر لما حملت، ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها، فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم، فقال لها إبراهيم: إفعلى بها ماشئت، فخافت هاجر فهربت، فنزلت عند عين هناك، فقال لها ملك من الملائكة، فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملته خيرا وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلدد ابنا وتسميه إسماعيل[2].

وشعرت سارة بأن ثمة وضعا جديدا قد طرأ على البيت، وأن إبراهيم عليه السلام قد تغير تجاه هاجر فأصبح يعاملها كزوجة وليس كخادمة.. ولقد كان كعادته رفيقا بسارة محبا لها.

وظلت سارة تتبع هاجر فى حركاتها وسكناتها.. الصغير ومنها والكبير، بفؤاد يقظ، استخدمت عينها وسمعها، وكل جارحة فيها.. لتقف على ماتفعله هاجر، وظلت تكبت عاطفتها تلك العاطفة المدمدمة في داخلها .. فالأنثى مهما أوتيت من قوة العقل والادراك، إلا أنها فى مثل هذه المواقف لاتملك السيطرة على نفسها، ومن ثم بدأت تظهر ماتخفى، ولاحظت هاجر ذلك فأخذت تتلطف معها.. وتستدر عطفها وتستثير مكانتها العليا فى البيت.. وتقول الروايات إن هاجر اتخذت أثوابا طويلة الذيل لتعفى أثرها على سارة أى لتخفى سيرها.. ومواضع اقدامها فتضيع المعالم ولايتأتى لسارة أن تعلم خط سيرها، حينما تتبعها.

وأنجبت هاجر إسماعيل.، وانتعشت نفس إبراهيم.. ولكن الغيرة لم تلبث أن دبت فى قلب سارة وعصفت بها الألم وحلفت : لتقطعن ثلاثة أعضاء منها ، فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها، فتبر قسمها.. وقال السهيلى: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من نقبت اذنها منهن، وأول من طولت ذيلها)[3].

---

(١) الصافات آية ١٠٠.
(٢) البداية والنهاية ، الحافظ بن كثير جـ١ ص١٥٣
(٣) قصص الانبياء بن كثير ص٢٢٢

ولم تعد تحتمل رؤية هاجر.. وتمنت أن يذهب بها وبطفلها إلى مكان قصي حتى لاتتألم كلما وقعت عيناها عليهما. وأذعن إبراهيم.. وسار بهاجر وطفلها إلى حيث أراد الله حتى إذا وصل إلى مكان بلقع خال من الماء والحياة وحط رحاله بعد أن زودهما بقليل من الماء والطعام، واستودعهما وقفل راجعا، فتبعته أم اسماعيل وتعلقت به.. وقالت: ياإبراهيم أين تذهب وتدعنا ها هنا فى واد لا أنيس فيه وليس معنا مايكفينا؟. وظل إبراهيم صامتا لايجيب.. وما انفكت هاجر تعيد السؤال وتلح فى استعطافه، وهى تشير الى طفلها ودموعها تنهمر ساخنة.. ثم قالت له فى صبر وتحمل.. هل أمرك الله بهذا؟ قال: نعم. قالت: اذن لن يضيعنا.

وأدركت أن أمر الله نافذ، وأن عليها أن تخضع لحكمه وتسلم أمرها إليه.

ويختبئ إبراهيم عند ثنية بحيث لايرونه، وظل يدعو بخشوع أن يبارك الله فى المكان وفى الذرية.. وأن يسوق إلى أهله أناسا يؤمنون بالله ويخشون ربهم.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(١).

وامتثلت هاجر الصابرة إلى قضاء الله، إلى أن نفد الزاد والماء - وضمت طفلها إلى صدرها خوفا وقلقاً - ولكن المرأة لم تتحمل أن ترى طفلها يتلوى باكياً من الجوع والعطش فانطلقت تفتش عن غذاء وتبحث عن ماء.. وظلت تروح وتجئ بين الصفا والمروة رافعة ثوبها فى إصرار وألم أيضا، وفى كل مرة يصلها صياح الطفل ينقطع قلبها ويحز فى أعماقها- حتى إذا أكملت سبعاً عادت إلى ولدها يائسة - فإذا بها تجد نبعا من الماء يتفجر عند قدم وليدها فتسعد وتسجد لله شاكرة، وتقبل على ولدها تكفكف دمعه وترويه حتى إذا اطمأنت عليه ارتوت هى الأخرى وتلألأ ضياء جديد، وانقشعت سحابة معتمة من حياتها، فلقد من الله عليها بفضل من عنده.

قال ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم: «فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك (الملك الذى رأته عند موضع زمزم): لاتخافى الضيعة، فإن ها هنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وأن الله لايضيع أهله.

ولما نبع الماء اجتذب الطير.. وأقبل قوم من جرهم حتى وصلوا إلى نبع الماء.. ووجدوا أم

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٧

اسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا. قالوا: نعم، وأنست بهم هاجر واطمأنت إلى جوارهم، وشب إسماعيل وسطهم وتعلم العربية معهم، وتزوج امرأة منهم.

وتمضى الأيام.. فإذا بالمنية تختطف هاجر. ويحزن إسماعيل عليها حزنا شديدا.. «فلقد تعهدته فى مهده، ورعته فى طفولته وأظلته بحنانها فى شبابه، وكانت له دائما عضدا فى الملمات ومعينا فى النازلات»[1].

ولقد تحدد الإذعان لله والخضوع لمشيئته فى سيرة هذه الأم الصابرة على أمر الله، الطامعة فى رضاه وعفوه.

ولقد كرمها الله سبحانه إذ جعل سعيها منسكا من مناسك الحج.. فالحاج إلى بيت الله الحرام يترسم حظى هذه السيدة، مستشعرا ماكانت تشعر به من رحمة الله وعفوه.

وتمضى الايام وتنطوى الأحداث ويستقر بسارة المقام فى الشام مع زوجها بعدما تخلصت من إسماعيل وأمه، وامتد بها العمر وطال حتي أدركتها الشيخوخة.. هذه المرأة العقيم والعجوز المتهالكة، اراد الله سبحانه أن يجعل منها معجزة، وأن ينعم عليها بالذرية .. وحتى يستشعر قلبها من حيث لاتحتسب قدرة الله ورحمته «ورعايته بآل البيت».

قال تعالى: ﴿ وبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [2].

قال تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [3].

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [4].

---

(١) قصص القرآن ص٥٥، وانظر قصص الأنبياء جـ١ ص١٨٦

(٢) الصفات ٢٢٢

(٣) هود ٧١- ٧٣

(٤) الذاريات ٢٤- ٣٠

لقد جاءت البشارة من الملائكة .. الذين مروا بإبراهيم وسارة فى طريقهم ألى قوم لوط.. حيث حلت عليهم لعنة الله لما كانوا يفعلونه من موبقات لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، ولقد حمل الملائكة معهم بشرى لإبراهيم بولد تنجبه زوجته سارة العجوز العقيم.. وبولادته تتحطم السنن والنواميس، وتتأكد المعجزة.. وعندما يشاء الله لحكمة يريدها يقع مايخالف العادة.، فمشيئة الله طليقة وراء ماقرره الله سبحانه من نواميس، فالناموس (يجرى وينفذ بقدر من الله فى كل مرة ينفذ فيها، فهو لايجرى ولاينفذ آلياً. فإذا قدر الله أن يجرى الناموس بصورة أخرى غير الذى جرى بها فى مرات سابقة كان ماقدره الله، ولم يقف الناموس في وجه هذا القدر الجديد، ذلك أن للناموس الذى تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد علي الاطلاق [1].

وما أن رأى إبراهيم هؤلاء الرجال الذين نزلوا ضيوفا عليه حتى أسرع إلى عجل سمين شواه وهيأه وقدمه طعاما لهم وطلب منهم أن يأكلوا.. وكيف يأكلون وهم ملائكة!! ولما رآهم يمتنعون عن الطعام أحس منهم الخوف والفزع، ذلك أن العرب كان (إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير وإنما جاء يحدث نفسه بشر)[2].. ولقد تحركت فيه هواجس الشك والحذر.. وإبراهيم وقد بلغ من السن مدى طويلا لا يقوى علي هذه الانفعالات التى تسببها الشكوك، ومن ثم اسرعت الملائكة وأخبرته بالحقيقة.، فهم ملائكة ربك لاتأكل ولاتشرب وأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط. وكانت سارة تتابع هذا الحوار من وراء حجاب.. ففرحت وضحكت حين ساقت الملائكة بشرى الإنجاب.. ولقد غمرها الفرح بعد هذا الصبر الطويل حين حدد الرجال المولود واسمه.. إنه إسحاق ويعقوب.

وتأخذها المفاجأة ويسيطر عليها العجب وتنطلق فى دفعة واحدة تحاور الرجال وكأنما تحادث نفسها فى صوت خفى يكاد لايصدق.. كيف ألد وأنا العجوز المسنة العقيم؟ وهذا زوجى إبراهيم شيخ هرم.؟ نعم جاء تعجبها مما تعرفه من سنن الحياة.. لقد كانت فى تلك اللحظة تقترب من المائة عام.. وقبل هذه السن بزمن طويل ينقطع الحيض ،ويغيض الرحم.. الذى هو مظهر الخصوبة للأنثى.. إنه أمر عجيب حقا.. هذا الذى تسمعه.. ومن ثم جاءت العبارة سريعة لاهثة واشية بفرحة تكاد لاتصدق (إن هذا لشئ عجيب) ولكن لا شئ بالقياس إلى قدرة الله عجيب. ويرد عليها الملائكة قائلين أتعجبين من قدرة الله وحكمته فى

(١) الظلال جـ٤ ص ١٩١٢
(٢) الطبرى جـ١٢ ص٧١

خلق الولد من زوجين هرمين؟.. ليس هذا بمكان عجب على قدرة الله فهو المحمود في صفاته وذاته.

لقد أنكرت عليها الملائكة هذا التعجب (لأنها كانت في بيت الايات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ومايزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب)[1].

ورزقت سارة بإسحاق - جزاء لها - وضربت المثل هنا في الصبر والاستسلام للمشيئة الإلهية والله يرزق من يشاء بغير حساب.

(١) الكشاف جـ٢ ص٢٢٥

الأمومة: العاطفة.. والامتثال

أن عهد موسى عليه السلام يذكرنا ببعض من النساء كان لهن أثر كبير في مسيرة حياته.، وتنوع أثرها مابين التدبير والرعاية والرأى والفراسة والايمان واطمئنان القلب.. ولقد تجمع ذلك كله فيهن فحفظن موسى الذى اصطفاه الله برسالته وكانت أولى النساء.. أم موسى. الام الصابرة المؤمنة، الممتثلة لأمر الله ووحيه، الواثقة فى ربها المطمئنة إلى وعده وبشراه.

وهى الأم - ايضا التى يصورها القران قلقه على وليدها خائفة من الشرور التى يمكن أن تلحق به.. الأم التى اختلط فى قلبها العديد من المشاعر والانفعالات.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

(١) القصص اية ٧
(٢) القصص ١٠ - ١٣

السياق القصصي يشير إلى طغيان فرعون وتسلطه على بنى إسرائيل. والموقف هنا حلقة من حلقات هذا الطغيان. ذلك أن فرعون قد هداه تفكيره الفاسد إلى أن يذبح الذكور من بنى إسرائيل - حتى لا يكونوا قوة تناوئه فضلا عن النبوءة التى أشارت إلى أن ملكة سيزول بفضل واحد منهم.. فى هذا الجو الرهيب الذى يسيطر عليه الخوف والقلق حملته أم موسى ثم ولدته والخطر يحدق به ويكاد يتخطفه.

لقد احترزت أم موسى من أول حملها به ولم يكن يظهر عليها ما يدل على ذلك (فلما وضعت الهمت أن تتخذ له تابوتا، وربطته فى حبل، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته فى ذلك التابوت فأرسلته فى البحر وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به)[1]. فلقد كان يشغلها كيف تخفيه عن أعين الرقباء والموت يحيط به، كيف يكف عن صياحه وكيف تدارى ذلك كله؟

ويأمرها الوحى أن ترضعه ثم تضعه فى التابوت وتلقى به فى اليم.. وحين فعلت امتثالا لوحى الله لم تستطع أن تتحكم فى عاطفتها، وهى الأم، وهو الطفل الذى أخذه اليم ولا تدرى أين القرار؟ وتطلب من أخته أن تطمئن عليه فتذهب أخته تقص أثره.

أننا أمام أم حائرة، مذعورة، خشية أن يصل فرعون إلى وليدها وهو القوى: ويتشعب الخوف لإحساسها بالعجز، وحين جاء الوحى كان بمثابة اطمئنان قلبى كامل، وأشاره ببشارة تحمل الفرحة وتبشر بالرسالة، ولعلنا نتصور قسوة الاختيار من جانب الأم: أتحضنه فيذبح بين يديها، أو تتركه يتلقى قدر الله؟ واختارت - عبر الوحى - قدر الله وكأنما تتحرر من الخوف.. ويصور التعبير القرآنى هذا العقل الملتاث إلى حد الجنون.. بأنه فؤاد فارغ لا عقل فيه ولا وعى.. بل كادت تصرخ بما يدمدم داخلها لولا لطف الله بها.. فثبت الله فؤادها وهدأ من روعها «ربطنا على قلبها».

وتتدخل المشيئة حين. برفض الطفل الثدى الذى يعرض عليه، وحزنت آسية - امرأة فرعون - لما رأته من الطفل، فأحضرت أكثر من مرضع له. وأشفقت عليه أن يمتنع عن الرضاع فيموت - ويتحول قصر فرعون إلى خلية من النساء كل واحدة تعرض نفسها على الطفل عساه أن يرضع منها - وتحين الفرصة للأخت التى ظلت تحرسه، وتتابع مسيرته. وها هى فى المشهد الماثل أمامها حيث الطفل الصارخ، الرافض الطعام، وحيث القلق عليه من ساكنى القصر.. تتقدم فى حذر وتعرض عليهم خدماتها.. وقالت فى صوت حيى.. هل أدلكم على مرضعة تكفله وترعاه؟ وأمرها فرعون أن تأتى بمن يكفله (فدلتهم على أم موسى فانطلقت

(١) قصص الأنبياء ص ٧ج٢

إليـها بأمـرهـم فجـاءت بها، والصـبى على يد فـرعون يدلله شـفقـة عليـه وهو يبكى يطلب الرضاع، فدفعه إليـها فلما وجد ريح أمه قبل ثديها، فقال فـرعون من أنت منه؟ فقد أبى كل ثدى إلا ثديك؟ فقـالت.. إنى امرأة طيـبة الريح، طيـبة اللبن لا أكاد أوتى بصـبى إلا قبلنى، فدفعه إليها.. فرجعت إلى بيتها من يومها ولم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالهدايا [1].

لقد أنعم اللـه على الأم برد ولدها لها، وإحسـانه لها، وامتنانه عليها.. وعـاش الطفل فى القصر وشب فـيه تحت رعاية آسية، وزوجـها فرعون مصر، وهـكذا أراد الله أن ينشأ موسى تحت سـمع فرعـون وبصـره ليـعلم كل جبـار فى الأرض أن الله إذا أراد شـيـئا قـال له كن فيكون.. إن ذلك الطفل الذى أوصلتـه الأقدار إلى شاطىء قصره هو الذى أخبـره المنجمون أنه سيكون سببا فى الهلاك..

يقول سـيد قطب رحـمة الله معلقـا على هذا الموقف (يعود الطفل الغـائب لأمه الملهـوفة، معافى فى بدنه، مـرموقاً فى مكانته، يحـميه فرعون، وترعـاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير) [2].

وتذكرت أم مـوسى وعد الله لها.. وعلمـت أن الله لا يخلف وعده. وتظل امرأة فـرعون ساهرة عليه راعية له فى حدب وعطف ومثـابرة.. لتقوم بدورها خير قيام، وترتاح الأم وهى تراه فى أيد أمينة.

وهكذا فقد صور القـرآن حال الأم فى صورة بلغت حد الإعجاز، واكـتمل فى هذا المشهد كل جـوانب الصور الإبداعـية فى سـياق قـصصـى، حيث تعـددت الشخـصيـات وتنوعت المشاعـر واختلط السـرد بالحوار، والأمر بالاسـتغاثـة والتشويق بالأمل، والوعـد بالتحـقيق، والفراق بالعودة والخوف بالاطمئنان.

وضربت أم موسى بذلك نموذجـا لشخصية الأم فى لهفـتها وصراعها النفـسى الهائل أمام قوة غاشمة.

(١) القرطبى ج١٣ ص٢٦١.
(٢) الظلال ج٥ ص٢٦٨٠

الأنثى.. الحياء.. والفراسة

كشفت القصة القرآنية عن الشعور الإنساني الفطرى الكامن فى الذات البشرية حيث لمست أبرز المشاعر الإنسانية وأرقها، وأنبلها، كما عرت النفس البشرية فى عنادها وتهورها ووقوعها تحت سيطرة الانفعال غير السوى كالحقد والغيرة؛ والبطر والانتقام والهوى الشديد.

«والجانب الوجدانى من الانسان هو بطبيعته أدخل الجوانب فى موضوع الفنون»

والقصة القرآنية تنظر إلى الانسان فى حقيقته، وتعرضه عرضا تكشف فيه ما انطوت عليه نفسه من خير وشر وضعف وقوة، كما أنها تكشف ما عند الانسان من قدرة قادرة على الارتفاع والسمو.. والانسان بفطرته التى خلقه الله عليها قادر على أن ينتصر على جوانب الضعف فيه.

ولقد كشفت القصة القرآنية عن عواطف سامية، راقيقة رقة النسيم، عواطف تهمس بها الضمائر، وتخطر على القلوب اليقظة الواعية.. فتظهر خبايا النفس فى إشارات تمس أرق العواطف والمشاعر. وقصة ابنة شعيب مع موسى عليه السلام نموذج لهذا اللون النظيف من المشاعر، والقصة توضح لنا ملامح هذه الفتاة؛ التى تركز تحول صفتين كبيرتين هما.. الحياء، والفراسة.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)

فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[1].

نحن أمام نموذج للمرأة الأنثى «التى تستجيب لطبيعتها فى طلب الزواج وفتح منافذ الوصول إليه فى تلطف ومداراة من غير أن يخدش حياؤها»[2]، إذ أنها تسير إلى موسى على استحياء، وتجيء له فى صورة أنثى واشية له بأنها المرأة الصالحة له، إن كان يود الزواج أو كانت له فيها رغبة.

ونقف أمام فراسة هذه الفتاة مبهورين بهذا الحدس الداخلى فيها، الذى جعلها تقف على مواطن العظمة وقوة الشخصية وخلق الأمانة. والأمانة من الصفات الباطنة التى لابد فى إدراكها من عشرة طويلة، وتجارب متكررة، ولا يكفى فى إدراكها اجتماع واحد ولا نظرة واحدة. وبنت شعيب لم تر موسى إلا حينما سقى لها، وهذا القدر من الرؤية ليس من شأنه أن يمكن من معرفة أسرار النفس ودخائلها (ولكنها ابنة شعيب، وقد أوتيت من قوة الفراسة ما أدركت به أمانته وقوته - فوصلت بينه وبين أبيها، وتعانق بهذا الوصل فرعان نبويان)[3]

عرف الملأ من قوم فرعون نبأ ما فعله موسى بالمصرى فقرروا أن يعاقبوه بالقتل، وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يحذره ويطلب منه أن يخرج من المدينة، وخرج موسى خائفا يترقب، واتجه صوب الصحراء.. مضى لا أنيس له إلا نور الله؛ ولا معين إلا التقوى؛ واستسلم داعيا ربه أن يهديه إلى سواء السبيل.. وانتهى به المطاف إلى ماء لمدين يسقون منه.. ووجدا أناسا قد تزاحموا على مورد الماء.. وعلى بعد رأى امرأتين منعزلتين تدفعان الأغنام.. وقد بدا عليهما الضعف

وتقدم إليهما موسى وسألهما.. ما خطبكما؟ وفى انكسار وضعف قالت المرأتان.. نحن لا نقوى على الزحام، وليس عندنا من يقوم بالعمل؛ وأبونا شيخ كبير. ومضى موسى إلى البئر

(١) القصص ٢٣ - ٢٧ .
(٢) القصص القرانى منطوقه ومفهومه ص١٣٠ .
(٣) من توجيهات الإسلام ص٢١١.

وسقى لهما، ورجعتا سريعا «وكانتا إنما تسقيان من فضول الحياض» وتولى موسى إلى الظل وناجى ربه إنى فقير محتاج إلى كرمك وفضلك.

وحين رجعت الفتاتان سريعا إلى شعيب تعجب من ذلك، فما كان ذلك دأبهما، فأخبرتاه بما فعل موسى. فأرسل إحداهما فى طلبه، وجاءته الفتاة تمشى على استحياء - مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة.. وقالت فى وضوح وإبانة.. إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا..

وانظر إلى الألفاظ المعبرة عن الموقف.. لقد جاء لفظ تذودان؛ ليصف مشاعر الضعف والمسكنة والحال التى كانت عليها الفتاتان. إنهما لا يقدران على مساجلة الرجال ولا ترضيان لنفسيهما الهوان.. كما وشى اللفظ على (استحياء) بالعفة والنبل والطهارة.. إنما تمشى على استحياء مشية الضعيف فى غير تبذل أو خروج على الفطرة السليمة.

ويعطينا الموقف بعداً آخر.. يتمثل فى خروج المرأة إى العمل.. وذكر السياق الأسباب التى أوجبت ذلك.. ولكن الموقف يكشف عن الضمانات التى يجب أن تتوافر للخروج للعمل.. إذ خرجت الفتاتان معا.. لتراقب كل منهما الأخرى، حتى لا تخرج واحدة بمفردها.. فينفتح الباب للشيطان، ومن ثم كانت كل منهما فى رقابة الأخرى، فضلا عن أنهما لم تزاحما الرجال. إذن فعمل المرأة عند الضرورة له شروط «فالضرورة التى اقتضت خروجهما أن أباهما شيخ كبير، والعمل تم على قدر الضرورة، فلم يزاحما الرجال، بل انتظرا حتى يسقى الرعاة وينصرفوا.. وأن المهمة الإيمانية للمجتمع هى مساعدة المرأة بدون أجر.. على أن تقضى عملها وتنصرف.. ولذلك فإن موسى عليه السلام سقى لهما بدون أجر رغم أنه كان محتاجا للمال»[1].

ومضت الفتاة بموسى، وتبعها موسى إلى البيت، وقص على الشيخ قصته وطمأنه الشيخ، ثم تبادر إحدى البنتين فى مشاعر انثوية غاية فى الاستقامة والسلامة، تبادر إلى أبيها قائلة فى حياء.. يا أبت استأجره.. ولقد كشف اللفظ استأجره، ذلك الهاجس الجميل الذى تحس به الفتاة .إنه الإعجاب بنوعين من القوة تبدت لها من موسى، القوة الجسمية، والقوة الخلقية، واللفظ يظهر الجانب الوجدانى لدى المرأة، فهى حين تعجب بأحد، هذا الإعجاب النظيف، تحاول أن تزينه فى عيون الآخرين.. ومن ثم فلقد زينت ابنة شعيب.. موسى فى عين أبيها.

ويفطن الشيخ إلى المراد.. وكأنما أحست الفتاة باهتمام مندهش عند الأب فسارعت لتؤكد أنه القوى الذى زاحم وسقى، وأنه العفيف الذى أطرق حياء حين جاءته، وأنه الذى سار

(١) المرأة فى القرآن الكريم ص١٠٧

أمامها حفاظا على الطهارة وحرصا على المكرمات. إنه أمين.. على العرض، والأمين على العرض أمين على ماسواه.. إن خير من استأجرت القوى الأمين.

تقول الروايات أن موسى حين قام مع الفتاة قال لها.. امضى، فمشت بين يديه، فضربتها الرياح فنظر إلى عجيزتها.. فقال لها موسى.. إمشى خلفى ودلينى على الطريق إن أخطأت.. فإذا اختلف الطريق فالقى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

وقال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته «أكرمى مثواه»، وصاحبة موسى حين قالت: (يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوى الأمين) وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب [1].

ومنهج القرآن الكريم حين يتحدث عن القصص ويورد موقفا من المواقف لا يجرى وراء التفاصيل ولا يحدد الصفات المادية للشخصية ولا يسرد تاريخا تتابعيا.. بل هو يختار من المواقف وحلقات الحياة ما يؤدى إلى إبراز الهدف.. ومن ثم فلا حاجة لتأويل ما جاء فى الروايات حول القوة البدنية التى تدفع الصخرة التى ينوء بحملها سبعة رجال ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة.. إمشى خلفى ودلينى على الطريق خوفاً من أن يراها أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها - فهذا تكلف لا داعى له ودفع لريبة لا وجود لها، وموسى عليه السلام عفيف النظر نظيف الحس وهى كذلك، والعفة والأمانة لا تحتاجان إلى كل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة، فالعفة تتضح فى التصرف العادى البسيط بلا تكلف ولا اصطناع[2].

واستجاب الشيخ، وكأنما أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة وميلا فطريا لبناء أسرة، فتوجه الشيخ إلى موسى قائلا: «إنى أرغب فى أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين على أن تكون عونا لى ترعى الغنم وتساعدنى ثمانى حجج، وإن زدتها إثنين فذلك فضل منك ومنة.

ولم تكد تسمع الفتاة هذا الحديث حتى سرى أمل الحياة فى حياة أسرية نظيفة.. لقد صورت القصة عواطف الأنثى النظيفة تجاه الرجل «عواطف الإعجاب بقوته ونبله وشهامته ثم أمانته المتمثلة فى محافظته عليهما، والفتاة تعبر عن هذه العواطف على طريقة الأنثى الحية الخجولة» .. إنها عواطف الإعجاب والميول وما يصحبها من عمل طيب وسلوك قويم

(١) قصص الأنبياء جـ ٢ ص ١٨ .
(٢) الظلال جـ ٥ ص ٢٦٨٧ ـ ٢٦٨٨ .

والحكم عليها هو الحكم الذى يستمد شرعيته من قوانين الدين وشرعه الذى يتلائم مع الفطرة السوية، الطاهرة النقية. والجمال هو فطرة الطبيعة وكل مشاعر طيبة مبرأة من الغرض والهوى فهى مشاعر جميلة تساهم فى حسن الأداء وتقويمه وتعديله وتخليصه من الهوى والجموح والشطط والسقوط.

ولقد دلت التجارب على أن الكفاءة القائمة على الدين والخلق هى التى تضمن للحياة الزوجية السعادة والاستقرار.

الأنثى.. الهوى والجموح

نحن أمام نموذج للمرأة العاشقة، التي غلبها الهوى وجمح بها الانفعال.. وسيطر عليها الانتقام ثم جاءها الندم أخيراً.. امرأة قادها الانفعال، وتلبسها في كل موقف وجدت فيه، أعجبت بالشباب والجمال فأقبلت عليه تمنى نفسها بارتواء حرمت منه، امرأة شذت عن طبيعة المرأة في التمنع والحياء وعرضت نفسها في ذل لمن أعرض عنها في عز.

إنها امرأة عزيز مصر.. التي تربت في القصور وعاشت حياتها في ترف ونعيم - ورغبت في يوسف؛ وتصرفت في الأمر كله بما يشير إلى أنها، جريئة، مالكة لكيدها، متهالكة على فتاها.. والمرأة نتاج بيئة خاصة وطبقة مترفة، وفي هذه البيئة كان يوسف فيها.. (مولى وتربى فيها في سن الفتنة.. فهذه هي المحنة الطويلة التي مر بها يوسف، وصمد لها ونجا منها، ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة، ولسنه وسن المرأة التي يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة في تقدير مدى الفتنة وخطورة المحنة والصمود لها هذا الأمد الطويل، أما هذه المرأة فلو كانت وحدها وكانت مفاجأة بلا تمهيد من إغراء طويل، لما كان عسيرا أن يصمد لها يوسف وبخاصة أنه هو مطلوب لا طالب، وتهالك المرأة قد يصد من نفس الرجل. وهي كانت متهالكة)[1].

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ

(١) الظلال جـ ٤ ص١٩٨٠.

رَبِّه كذلك لنصرف عنهُ السُّوء والفحشاء إنَّه من عبادنا المخلصين (٢٤) واستبقا الباب وقدت قميصه من دبرٍ وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم (٢٥) قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (٢٦) وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين (٢٧) فلمَّا رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم (٢٨) يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين (٢٩) وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين (٣٠) فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم (٣١) قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين (٣٢) قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾[(٢)].

وعن النبى صلى الله عليه وسلم.. مررت بيوسف الليلة التى عرج بى إلى السماء فقلت لجبريل: ما هذا؟ فقال: يوسف ،فقيل يا رسول الله كيف رأيته؟ قال: كالقمر ليلة البدر»[(٣)].

ترى أيكون الجمال وحده هوالمحرك لعاطفة المرأة؟ لا أخال الأمر كذلك وإلا كنا قد أعطيناها عذرا تعتذر به، فلا الجمال مثير بمفرده، ولا الرغبة الجامحة يثيرها جمال أو قبح. إنما هو نمط من السلوك تحكمه الدوافع المتسلطة ونموذج للشخصية الواقعة تحت أسر الجموح العاطفى.

ولنمضى إلى القصة:

تتوالى الأيام على يوسف وهو فى كنف عزيز مصر ورعايته ويشب الفتى ويمضى قدما إلى الشباب، وضئ الوجه، عفيف البصر، نقى القلب.. وتحمل الأيام فى طياتها بلاء جديدا يضاف إلى ما واجه يوسف من قبل، فها هى امرأة العزيز قد شغفها فتاها وقد نما تحت عينيها، شعرت المرأة بدبيب الهوى ينبض فى العروق ويتغلغل فى الداخل ويتملك القلب،

(١) يوسف ٢٣ - ٣٣.
(٢) يوسف ٥١.
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٢٥٣، والحديث أخرجه الحاكم والبيهقى.

ولم تصمد المرأة أمام جموح العاطفة، ولم تلق بالا إلى مكانة زوجها، ولم تراع الحرمة، لقد شغلتها الغريزة، وبدأت تنصب للفتى حبال الإغراء والخدعة، لمحت، وأشارت، وشجعت وصرحت.. ولكن الفتى الجميل.. الذى نشأ فى كنف الرجل.. وتربى على يد المرأة ـ غض النظر، وأوصد القلب وقطع على النفس هواجسها.

وجلست المرأة تذكر محاسن يوسف وتشوقه إلى نفسها.

فقالت له: يا يوسف ما أحسن عينيك؟

قال: هى أول ما يسيل من جسدى.

قالت: يا يوسف ما أحسن وجهك؟

قال: هو للتراب يأكله..

قالت: يا يوسف ما أحسن شعرك

قال: هو أول من ينتثر من جسدى.

فلم تزل حتى أطرق فهمت به وهم بها..)[1].

لقد شب الحريق داخل الأنثى، وتضاعف هواها وهى تراه معرضا عنها فلم يعد أمامها إلا الفعل الحسى، فهيأت نفسها جمالا وزينة، وأبدت عشقا متصابيا وغلقت الأبواب وأسدلت الستائر وتقدمت فى صوت ينضح رغبة: لقد تهيأت لك فهلم إلى الفراش وأنت آمن فليس هناك من أحد تخشاه.. وواجهها الفتى الجميل قائلا:

معاذ الله أن أفعل السوء، وأذعن إلى ما تطلبين، وحاشاى أن أخون زوجك وهو العزيز الذى أكرم مثواى وتعهدنى بالرعاية، فكيف أخونه فيك؟.. وإذا كنت قد أغلقت الأبواب فالله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

واستشاط غضب المرأة الجميلة الناعمة، كيف يرفض وهى السيدة؟ أهو إذلال لها؟؟.. وهمت به عن عزم وإصرار، لقد عقدت العزم على الفاحشة وقصدت إلى إجباره قصدا. وأمام هذا الموقف الجانح حدثته نفسه بالنزول عند رغبتها. ولم يكن الهم من الفتى إلا حديث نفس فى موقف مأزوم.. ولكنه حديث ككل أحاديث النفس خال من العزم والقصد، وأدركته عناية الله، فأحس بإشراقات النبوة، وترقرق برهان الله على صفحة القلب فصرف الله عنه السوء وعصمه من الخطيئة.

قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[2].

---

(١) تاريخ الطبرى: محمد بن جرير الطبرى جـ١ ص٢٢٧.
(٢) يوسف ٢٤ .

إننا مع نهاية موقف طويل من الإغراء، بعد أن أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم ـ وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة، ولكن السياق القرآنى لم يسهب فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالية، لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبه فى محيط القصة، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك ـ فذكر طرفى الموقف بين الاعتصام فى أوله والاعتصام فى نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ـ ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف معا) [1].

ورأت المرأة نية الهروب والبعد فجذبته فى شدة حتى مزقت ثوبه، ولكنه يفلت من المكيدة حتى يصل إلى الباب ويفتحه ويفاجأ بعزيز مصر لدى الباب) وقد رآه مضطربا ممزق الثوب، ولم تعدم الأنثى حيلة فى مثل هذه المواقف فبادرت زوجها قائلة: لم يرع الفتى حرمتك وقد حفظته، ورغب فى، فقل لى إذن: ما جزاء من أراد بأهلك سوء.. إلا أن يسجن أو توقع العذاب به، وإذا كانت المرأة قد لجأت إلى الكيد والحيلة، فلقد لجأ يوسف إلى الصدق وقال: هى راودتنى وجذبتنى ومزقت ثوبى.

وكان يشهد الموقف قريب فيه ذكاء وفطنة، فبادر القوم قائلا: إن كان ثوبه قد مزق من الخلف فهو صادق ـ وإن كان قد مزق من أمام فهو كاذب، وتطلع العزيز إلى يوسف فرأى قميصه قد من دبر ـ فوضح له الأمر وتبين كيد النساء ومكرهن، وطلب من يوسف أن يتكتم الأمر، وتوجه إلى امرأته ونهرها طالبا منها الاستغفار والتوبة، وشاع الخبر فى المدينة وبدأت النساء تردد أن امرأة العزيز قد شغفها يوسف حبا، ولقد توسلت إليه لكى يقضى وطرها ثم تلقت الصدمة حين وجدته زاهدا.

ووصلت الشائعة إلى امرأة العزيز وهالها ما سمعت، فلقد فضحت بين الناس ولم يعد للنساء من حديث غير هذا الحب المتيم المفضوح، وجمعت امرأة العزيز نسوة المدينة وهيأت لهن متكآت وثيرة، وقدمت لهن الطعام والفاكهة وأعطت كل واحدة سكينا.. ثم طلبت من يوسف أن يخرج عليهن وهن منشغلات بالطعام، ولتمش يا يوسف بينهن فى أجمل زينة حتى تفاجئهن.. وفوجئن به قائما كأجمل ما يكون إنسان، فلما رأينه أكبرنه وأعظمنه، وهتفن ما أجمل الفتى وما أروعه.. وغفلن عن السكاكين التى أخذت تجرح الأكف وهن مذهولات.. يصحن فى صوت واحد سبحان الله!!

---

(١) الظلال جـ ٤ ص١٩٨١.

وهنا تتقدم امرأة العزيز وهى ترى عيونهن تكاد تأكل الفتى أكلا وقالت: إنه يوسف الذى أحببته والذى لمتننى فيه،، ولقد أثر فيكن فى لحظة واحدة.. فما بالكن وهو معى صباح مساء!! وأصدقكن إننى راودته فاستعصم.. وإن لم يطاوعنى لأدفعن به إلى غيابات السجن.. يعانى الظلام والوحدة.. وأبدت النسوة رأفة بحال المرأة، فرغبنه فيها وحاولن كسر التأبى لديه، حتى بدا الموقف عصيبا.. فلم يملك يوسف إلا أن يلتجىء إلى الله إن يصرف عنه السوء ويبعد كيد النساء عنه.. فالسجن آثر عندى وأحب إلى نفسى من اقتراف الفاحشة التى يدعوننى إليها.. فلتعصمنى يا رب من كيدهن).

وفزعت المرأة إلى زوجها وأشارت إليه أن يسجن يوسف بعد أن فضحها، وانقاد الرجل إليها ودفع يوسف إلى السجن.

ثم تتقدم المرأة المحبة ليوسف وقد ندمت على ما فعلت خاصة وأنها لا تستطيع أن تتخلص من حبها له.. تقدمت إلى ملك البلاد بعد ما طلب يوسف أن يسأل النسوة عمّ فعلن بيوسف..؟ قالت إن يوسف صادق يا مليكى، فأنا الذى راودته عن نفسه.. واعترفت أنها لاتزال ـ رغم سجنه الطويل ـ مؤثرة له، محبة له، ووشت عبارتها بما يوحى بأن عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها.

إنها (شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصدقه، لا تبالى المرأة ما وراءها مما يلم بها ويلحق بأردانها).. ويشى السياق بحافز يدفعها إلى ذلك وهو حرصها على أن يحترمها الرجل المؤمن الذى لم يعبأ بفتنتها الجسدية، أن يحترمها تقديرا لإيمانها، وصدقها، وأمانتها فى حقه عند غيبته.. إنها امرأة أحبت، امرأة تكبر الرجل الذى تعلقت به فى جاهليتها، وإسلامها، فهى لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه أو خاطرة ارتياح تحس أنها صدرت عنه..)[1].

وتقول الروايات أن يوسف تزوج امرأة العزيز. وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيرا مما كنت تريدين؟

قالت: أيها الصديق لا تلمنى، فإنى كنت امرأة حسناء جميلة ناعمة، فى ملك ودنيا، وكان صاحبى لا يأتى النساء، وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك، فغلبتنى نفسى على ما رأيت.

إن هذا الموقف الذى نحن بصدده يتناول شخصية المرأة فى غرائزها ورغباتها واندفاعاتها الأنثوية، وهى فى حمأة الشهوة قد عميت عن كل شئ، فلم تعد تحفل بالحياء الأنثوى الفطرى: إنها مجرد امرأة ذات منصب وجمال تسعى إلى أرواء هواتفها الأنثوية.

(١) الظلال جـ ٤ ص ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦.

ويرينا الموقف القصصي بعضا من جوانب نفسية المرأة المترفة فيكشف عن أن الطبقةالمترفة تخمد فيها الغيرة والحمية في مسائل العرض والشرف.

ووشت الألفاظ بنفسية المرأة ورصدت حركتها الداخلية والخارجية معا.

فيوضح لفظ «المراودة» حركة نفسية داخلية تصور داخل الأنثى، مناورتها للرجل يقول الزمخشري: «خادعته عن نفسه، أى فعلت ما يفعل الخادع لصاحبه عن الشئ الذى لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذ منه، وهي عبارة عن التجميل لمواقعته إياها..» [1].

ويأتي التعبير «هيت لك» و«غلقت الأبواب» ليوضحان حالة المراودة ويجسدانها ويشيران إلى حالة القصد ولحظة الحسم.. وأصبح الموقف هكذا.. راودت المرأة وتهيأت وأغلقت الأبواب.. ثلاث حركات نفسيه داخلية وخارجية وضحت طبيعة الحركة والقصد منها..

ومن ثم ذهبت امرأة العزيز نموذجا للمرأة التي استبد بها الحب وغلبها «الهوى» فتتعقب دواعيه ومالت حيثما مال بها مندفعة بكل عاطفتها محتالة إليه بكل ما تمتلك من مكر ودهاء وهي في كل الحالات مثال أيضا للضعف البشري.. حين يتسلط الهوى ويشتد الجموح.

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٨.

المرأة.. العقل والحكمة.. والإرادة الفاعلة

تحدث القرآن عن المرأة كـملكة ذات جاه وسلطان، تحكم قوما بقـوة العقل الذى اكتسبته، وبتدبير الحكمة التى تميزت بها، وبفعلها المؤثر فى مجريات الأمور، فاكتسبت بذلك كله حب شعبها وتفانيه فى خدمة ملكها.

وملكة سبأ هى هذه المرأة التى تجسدت فيها هذه المعانى جميعا. فهى الملكة والقائدة والمحركة.. ومع ذلك لم يغلبها المنصب ولم ينحدر بها إلى سلوك فاسد، ولم تتجبر أو تتعنت ، وإنها حين وقعت الواقعة بينها وبين سليمان عليه السلام، وحدثت الأزمة لم تضعف، ولم تتسلط، أو تنفرد بالرأى.. بل واجهت الأزمة بقلب ثابت وعقل راجح وحكمة تصحبها دائما، ويقظة مشهود لها بها.. وأثبتت أنها القادرة على الفعل وحسن التصرف، حيث جمعت ذوى الرأى والحكمة والخبرة الطويلة فى مملكتها العريضة، وطرحت عليهم الأمر وبينت أنها ستلتزم بالرأى الذى يتفقون عليه جميعا.

امرأة واثقة من نفسها، ومحبة لقومها، مقدرة لذوى الرأى فى مملكتها، تستنير بالشورى، وتحتضن العقلاء، وهى التى فى مستوى عال لم تصل إليه امرأة من قبل، كما أنها «ذات فراسة وقوة فى استجلاء الحقائق الغامضة، وتدبير وسائل التخلص من المآزق الطارئة على وجه يبعد به الشر، ويعم به الخير»[1].

---

(١) من توجيهات الإسلام ص ٢١٢.

ويسرد القرآن تلك القصة فى سلاسة ووضوح..

قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ (١).

غاب الهدهد غيبة قصيرة وعاد يخفض رأسه إحساسا بالذنب. وكان سليمان يسير بمفازة فسأل عن بعد الماء.. فعجز الإنس والجن عن الإجابة وأخبرته الشياطين بأن الهدهد هو الطائر الذى يعلم ذلك.. وسئل عن الهدهد..؟ ولم يعثروا عليه فلقد كان غائبا.. فتوعده سليمان بالعقاب الشديد.

قال تعالى: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وحين علم الهدهد بعد رجوعه بتهديد سليمان له.. تقدم قائلا: لقد اطلعت على ما لم تطلع عليه وعرفت ما لم تعرفه (ولم تصل إلى الإحاطة به أسباب قوتك وملكك وكشفت سرا ند عنك أمره)(٢).

لقد وجد فى أرض سبأ من بلاد اليمن امرأة تسمى بلقيس ـ صاحبة السلطان والملك، وهم يدينون لها بالطاعة، وأعطيت من كل شئ يحتاج إليه الملوك، فضلا عن عرشها العظيم (قال قتادة: كان عرشها من ذهب، قوائمه من جوهر، مكلل باللؤلؤ(٣) ولقد أثر فيهم الشيطان وحسن إليهم عبادة الشمس من دون الله، وهالنى الأمر إذ كيف لا يسجدون لله الخالق العظيم.

ولعل العبارة القرآنية الكريمة «احطت بما لم تحط به» تعطى دلالة على أن العلم لا نهاية له، وأن الإحاطة به مستحيلة، والناس يتقاسمون بعضه، فمنهم من يحيط بجزء، ومنهم من يحيط بجزء آخر، والجميع لا يحيطون إلا بالبعض الضئيل.

.. ويعلم سليمان بالخبر.. فيرسل إليها داعيا إياها وقومها إلى التوحيد.

قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (٤).

(١) النمل ٢٢ ـ ٢٤.
(٢) قصص الأنبياء ١٦٩.
(٣) صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٤٠٧.
(٤) النمل ٢٧ ـ ٢٨

أمر سليمان عليه السلام أن يتناول الهدهد هذه الرسالة المهورة بخاتمه وشعار ملكه، وطلب منه أن يلقيها إليهم ثم يتنحى لينظر رأيهم ويترقب جوابهم، وحمل الهدهد الرسالة وطار بها إلى بلقيس، فوافاها فى قصرها فألقى إليها الكتاب فسقط فى حجرها» إنه كتاب كريم، وأشفقت منه فأخذته وألقت عليه ثيابها، وأمرت بسريرها فأخرج . فخرجت وقعدت عليه ونادت فى قومها» [1].. حتى إذا اجتمعوا طرحت عليهم الأمر.

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾(النمل ٢٩ ـ ٣٥).

الآيات الكريمة تظهر لنا مواهب هذه المرأة الحاكمة وتوضح سداد الرأى الذى تتميز به، إنها تحسن التدبير وتقدير العواقب، كما أنها لا تعدم سعة الحيلة فى توضيح وكشف ما لا تعرفه عن سليمان عليه السلام.

والملكة لم تشأ فى هذا الموقف المأزوم أن تنفرد بالرأى وتستبد بالأمر، وأن تأمر ما حلا لها.. بل سلكت سلوكا عاقلا إذ جمعت رجالات قومها وأهل المشورة والرأى والحكمة وطرحت عليهم ما وصلها من أمر الكتاب الكريم الذى وصل من قبل سليمان.

«لقد أخذت بمبدأ الشورى الذى هو أساس طبيعى لبقاء الملك وحفظه، وحينما أظهر لها رجالها العزة والاعتداد بقوتهم وأنهم طوع إرادتها وصاحوا صيحة الحماس والاستعداد للدفاع.. لم تخدع بما أظهروه من قوة واستعداد عن الحقيقة التى تؤمن بها فى نوايا الملوك المغيرين» [2] فنظرت بعين الفطنة وقالت إن الملوك إذا غزوا افسدوا.. وهكذا ندرك مدى إلمامها بحوادث التاريخ ولم تنخدع بما أبداه القوم من مظاهر القوة وتمثلت أمامها الأمر بأبعاده.. وطلبت الحل الأمثل الذى يؤدى إلى النجاة وإبعاد شبح الحرب وويلاتها.. ورأت أن تبدأ معاملتها مع سليمان بالتى هى أحسن، فتخطب وده وتستميله إليها وتبعده عما يمكن أن يقدم عليه من الهجوم والحرب، ومن ثم اهتدت إلى أن ترسل إليه بهدية فيها الغالى والنفيس تصانعه بها، وتتبين هدفه وتكشف عن منهجه وخططه.

(١) تاريخ الطبرى جـ١ ص٤٩١.
(٢) من توجيهات الإسلام ص ٢١٣.

وتقول الروايات أنها قالت: «فإن قبلها فهو من ملوك الدنيا، فنحن أعز منه، وأقوى، وإن لم يقبلها فهو نبي من الله»[1].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (النمل ٣٦ ـ ٣٧)

حين دنا الرسل، ورأوا ما عند سليمان دهشوا دهشة عظيمة «رأوا» أول الأمر الدواب التى لا يرى مثلهاتروث فى لبنات الذهب والفضة، فلما رأوا ذلك تقاصرت أنفسهم وخبأوا ما معهم من الهدايا: ولما رأوا الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا، فقالت لهم الشياطين جوزوا لابأس عليكم: فكانوا يمرون على كراديس (جماعات) الإنس والجن والوحش والطير حتى وقفوا بين يدى سليمان، فأقبل بوجه طلق وتلقاهم تلقيا حسنا..)[2].

ولما وصلت الهدية إلى سليمان، استنكر ذلك تماما وقال ارجع إليهم بالهدية فإن الله أعطانى رزقا كثيرا ومد لى فى أسباب النبوة: وكيف يرضى مثلى أن يصانع بمال، أو يلهى به عن نشر الدعوة.. ارجع وابلغهم أننا سنأتيهم بجنود لا قبل لهم بها.. وسيلحق بهم الذلة والهوان، وهكذا تحقق ما قدرته الملكة الحكيمة، وعلمت أن سليمان نبى الله يدعو إلى التوحيد والإسلام.. لا يرده مال ولا يثنيه سلطان.. إنه مأمور بتبليغ الرسالة.. وأدركت الوعيد الذى حمله الرسل إليها.. وتحدثوا عن جنود سليمان بما يوحى بأنهم لا قبل لهم بها.. وأشفقت المرأة الحكيمة على نفسها، وملكها وقومها.. ولاح لهاأنه من العناء الوقوف فى مواجهة الملك النبى، بل الحكمة كل الحكمة أن تسمع وتطيع وتسارع إلى قبول الدعوة وبذلك تبعد أتون الحرب ولهيبها المستعر. وانظر إلى هذا الموقف العاقل الذى جنبت فيه البلاد ويلات الحروب لتدرك أن المرأة فى اعتمادها على مبدأ الشورى وفى يقظتها وتقدير مواقفها.. لا تقل عن الرجل فى تقديره ويقظته.. لقد قادت المرأة شعبها، وحفظت بلادها وفتحت لهم أبواب الخير.. والهداية حين أسلمت.. وضربت بذلك نموذجا للحاكم الذى يقود شعبه إلى الخير والهدى.. والصلاح

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ

(١) الكامل فى التاريخ جـ ١ ص ١٣٢.
(٢) فى رحاب الأنبياء والرسل ١٨٦ ـ ١٨٧.

قَالَ هذا من فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شكر فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِه وَمَن كَفَر فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِين لا يَهْتَدُون ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِين ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِين ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِير قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [1].

لقد أراد سليمان عليه السلام عرش بلقيس فكان له ما أراد.. إذ طلب من قومه أن يأتوه بهذا العرش المرصع بالجواهر واللآلىء قبل قدوم بلقيس.. وتقدم من عنده علم الكتاب مبديا عرضه بأنه قادر على ذلك بإذن الله وفى لمح البصر، وكانت المفاجأة «فها هو يرى عرش بلقيس مستقرا عنده فى هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس فى طرفة عين»[2].. وشكر سليمان ربه وطلب من جنوده أن يتكروا لها عرشها بأن يغيروا من معالمه قليلا ليرى ما إذا كانت تتعرف عليه فتهتدى إليه أم أنها من الذين لا يهتدون.

ولاشك أن هذه المفاجأة سيكون لها تأثيرها الإيمانى على بلقيس وقومها. وأصبحت المفاجأة من أهم عناصر البناء القصصى.

ولعل هذا التنكير اختبار لفطنتها وذكائها.. وأن عرشها المنكرهذا سيملك عليها قلبها وإحساسها، ويجعلها أمامه كالمدهوشة الحالمة المتعجبة.

وأقبلت بلقيس. ورأت ما حولها.. وبدأ حوار بينها وبين سليمان:

قال سليمان: أهكذا عرشك؟

واستبعدت أن يكون عرشها وقد تركته خلفها.. والزمن لا يسمح بنقله، ولكن جوهر العرش هو.. هو.. وشعور داخلى يدفعها إلى التصديق به.. وبدأت تفكر فى عمق.. وعليها ألا تصدر حكما متسرعا لا يكون فى صالحها.

وأخيراً قررت أن تقول لسليمان فى حوارها معه.. كأنه هو.. والعبارة دلالة أخرى على التأنى والتريث فى إصدار الأحكام.

(١) النمل ٣٨ ـ ٤٤ .

(٢) قصص الأنبياء ص ٢٧٩.

وكان سليمان قد بنى صرحا من زجاج.. وعمل فى ممره ماء وجعل عليه سقفا من زجاج ثم دعا بلقيس ملكة سبأ إليه.. فلما رأته ظنته لجة فكشفت عن ساقيها لتخوض فى مائه.. «وكشفت عن ساقيها لتدخل، وكان شعر ساقيها ملتويا على ساقيها. إذ كانت شعراء الساقين»[1].

ووقفت الملكة مدهوشة أمام هذه العجائب التى تعجز البشر، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره، معلنة إسلامها مع سليمان لله رب العالمين. لقد اهتدى قلبها واستنار وعرفت أن الإسلام ليس استسلاما لأحد من خلقه ولو كان سليمان، إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين.

«وهكذا كانت بلقيس» امرأة كاملة تتقى الحرب والتدمير، وتستخدم الحيلة والملاطفة، بدل المجاهرة والمخاشنة، ثم لا تسلم لأول وهلة، فالمفاجأة تمر فلا تسلم، فإذا بهرتها المفاجأة الثانية، وأحست بغريزتها أن إعداد المفاجأة لها دليل على عناية «الرجل» بها، ألقت السلاح.. وألقت بنفسها إلى الرجل الذى بهرها وأبدى اهتمامه بها بعد الحذر الأصيل فى طبيعة المرأة والتردد الخالد فى نفس حواء[2].

(١) تاريخ الطبرى جـ١ ص ١٩٣.
(٢) التصوير الفنى - سيد قطب ص٢١٥.

البتول الطاهرة.. وصدمة المفاجأة

قال تعالى: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا

(١) سورة مريم ١٦ - ٣٠)

.. التعبير القرآنى يتناول الموقف القصصى بريشة المصور المبدع فتستحيل القصة حادثاً يقع ومشهدا يجرى.. وهذا النوع من التصوير يبرز الوجدان الإنسانى بما يكتنفه من عواطف وانفعالات، وذلك من خلال سلوك الشخصية وموقفها من الأشياء والأداء التعبيرى فى القصة القرآنية ينقل هذا الوجدان فى نسق تصويرى موح ومعبر وغير مباشر، فيتواصل الإحساس الفياض بالمشاعر والانفعالات.

.. الموقف القصصى مشحون بالعواطف والانفعالات ومتلائم مع طبيعة الأنثى، ويدور الموقف حول السيدة مريم ابنة عمران.

اصطفى الله سبحانه وتعالى مريم من بين النساء بأن اختارها أماً لعيسى عليه السلام دون أن يكون هناك أب. وأنبأنا القرآن أن الله تقبل المرأة فيما يتصل بشئون العبادة والقيام بخدمة الأماكن المقدسة، كما يتقبل الرجل.

وتخبرنا الآيات أن امرأة عمران اتجهت إلى الله ضارعة أن يمن عليها بالولد وأنها ستنذره للعبادة وخدمة المقدسات . وكان المعروف أن الذى يقوم بخدمة المقدسات هو الرجل دون المرأة.. وحين جاء أوان الوضع فوجئت الأم مفاجأة لم تتوقعها، فلقد كان المولود أنثى (وظنت بمقتضى الظن السائد فى العرف إذ ذاك أنه قد فاتها الوفاء بنذرها، فأبطل الله عليها هذا الظن وأنبأها أنه فى المهمة التى لأجلها نذرت ما فى بطنها يتقبل الأنثى كما يتقبل الرجل)[1].

ولقد دفعتها الأم إلى العبادة فى مكان العبادة فتنازعوا فيها، وكان زكريا عليه السلام بينهم فى ذلك الوقت، وأراد أن يكفلها فاعترضوا. ثم طلبوا أن يقترع معهم.. وذلك أن كلا منهم ألقى قلمه معروفاً به، ثم حملوها ووضعوها وأمروا غلاماً لم يبلغ الحلم، فأخرج واحدا منها وظهر قلم زكريا عليه السلام، فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا الاقلام فى النهر فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب لهم فكان قلم زكريا - فكفلها - إذ كان أحق بها شرعا وقدراً)[2].

واحتلت مريم من قلب زكريا مكاناً عاليا، ولقد كانت ذات عقل راشد، وإجابة سديدة وعبادة حسنة وثقة كاملة بالله. واتخذت مريم عليها السلام محرابا تتعبد فيه وكان كلما دخل زكريا عليها المحراب وجدها عندها رزقا، وهو يعلم أن أحداً لا يدخل عليها أو يطرق بابها طارق، وحاول أن يتعرف على هذا السر فسألها، من أين لك هذا؟ إنه رزق فى غير

(١) من توجيهات الإسلام ص٢٠٧.
(٢) قصص الأنبياء جـ٢ ص٣٥٢.

أوانه، والابواب مغلقة ولا سبيل إلى الدخول. فقالت: أنه من عند الله.. أن الله يرزق من يشاء بغير حساب. هنالك عظم حبه لها وعلم أن الله أختصها بمنزلة دونها منازل الناس، واصطفاها على النساء.

وفي يوم اعتكفت مريم كعادتها تصلى لله وتعبده. وفجأة تضطرب نفسها وبداخلها رهبة وخوف. فها هي لحظة الاختيار والاصطفاء.

ونقف مع الآيات الكريمة الحافلة بالمشاعر والانفعالات والصراع النفسى الحاد. وهذه الانفعالات مصحوبة بردود أفعال شرطية ترتبط بالمواقف التى فوجئت مريم بها. ففى كل موقف هزة ومع كل مشهد انفعال.

فها هي الفتاة العذراء الطاهرة مطمئنة إلى وحدتها متبتلة لربها، هادئة النفس صافية السريرة، وفجأة يظهر أمامها ملك من السماء على هيئة رجل سوى حتى تأنس له ولا تنفر. وأخذتها الهزة الانفعالية، فتنتفض انتفاضة العذراء التى تخشى على نفسها أن يمسها أحد بسوء، وحاولت الهروب واستثارة مشاعر التقوى لدى الرجل لعله يرجع عن انفعال الشهوة الذى تخشاه مريم.

وتأتى الهزة الثانية حين سمعت أنه سيهب لها ولدا زكيا يكون كريما طاهرا مكرما.

أنه لخبر غريب وعجيب. وتعجبت كيف يكون لها غلام ولم يمسسها بشر، فهى لازوج لها ولا هي ممن تتزوج «غشيتها سحابة من الحزن وطافت بها موجة من الأسى ولكن هول الموقف وشدته لم يعقد لسانها، بل استجمعت قوتها الشاردة وخرجت من صمتها» (١) وقالت بانفعال شديد وبألفاظ واضحة كيف يتأتى لها أن تنجب؟ وأخبرها الملك أن الله قادر على ما يشاء وأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون وأن ذلك أمر هين:

وتأتى الهزة الثالثة: وهي تتأمل حالها وأوجست فى نفسها خيفة.. ماذا يقول الناس عنها؟ ماذا يقولون عن أمرأة تحمل وتلد بلا زوج؟ ووقعت مريم فى حمى الفعل. فقد نفخ فيها الروح الأمين.. وتركها للموقف الصعب. فانزلت فى مكان قصى وغلب عليها الخوف والسر الرهيب ينمو فى أحشائها يكاد يفضحها. (ولما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بنى إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن خالها، فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج فعرض لها ذات يوم فى الكلام..

(١) قصص القران ص ٢١٢.

فقال يا مريم : هل يكون زرع من غير بذر؟

قالت: نعم.. فمن خلق الزرع الأول

ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟

قالت: نعم ..فمن خلق الشجر الأول؟

ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟

قالت: نعم.. إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى..

قال لها : اخبريني خبرك

قالت: إن الله «بشرني بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم»[1].

واحتجبت مريم عن العيون حتي تضع حملهـا: ويجيئها المخاض فتأوى إلى جذع النخلة. لقد كانت وحيدة. يغلب عليها الألم والحزن والحيرة.

وتصـور الآيات مريم لحظة المخـاض وهى تواجـه الأمر بآلام نفـسيـة حادة بجـانب الآلام الجسدية.. تواجه المخاض الذى أجاءها إجـاءة إلى جذع النخلة واضطرها إلى الإستناد إليها وهى وحيدة فريدة لا مـعين ولا مساند، تعانى حيرة العـذراء فى أول مخاض لها. وتكاد من فرط أضطرابها تلمس موقع الآلام النفسية. انها تتمنى أن تصبح نسياً منسياً.

وتجمع مريم شتات نفـسها، وبقايا قوتها، وتلملم ألمها وحزنهـا، وهى تواجه بمواقف السخرية والتهكم من قومها، وبـالقسوة وما يقولون عن نفسية امرأة طاهرة كـريمة. وتلزم الصمت كشأن العاجـز وتشيـر إلى الطفل.. فكيف لها أن تـتحدث وقد اتهـموها بالفـاحشة العـظمى ورموها بالداهيـة الدهياء.. وطلبت منهم أن يـحادثوا الطفل- وتعـجب القوم كـيف يكلمون طـفلاً لا يعقل الخطاب.. انه فى المهد لا يميز شيئا.. وتصوروا انها تـسخر بهم وتتهكم.

ويعلن الطفل عن نفسه.

انطق الله عـيسى، وتحـركت شفـتاه الرقـيقـة، فكان ذلك أقوى دليل على براءتهـا وأسطع برهان على طهرها وكانت آية بينة ترد بها على قذف القاذفين وعيب العائبين.

.. وهذا المشـهـد الذى نحن بصدده حـافل بالصـراع بجـمـيع جوانبـه، صـراع مع النفس وصراع مع الغير، يعلو الصراع عاطفة الخوف والقلق والاضطراب.

ففى جـانب الصراع الخارجى تبـدو مريم فى خوفـها من الشخص (الملك) الذى فـاجأها، وكذلك مادار بينها وبين قومها وهم يواجهونا بالاتهام والسخرية.

(١) البداية والنهاية: الحافظ بن كثير جـ٢ ص٦٥.

ويتبدى الصراع مع النفس- الصراع الداخلى- فى مراحل قصتها كلها، وهزاتها النفسية الثلاث. ولقد امتزج هذان النوعان من الصراع ليعطى للمشهد قدرته وليطفو الوجدان عاليا ليصبح هو محور المشهد كله وأساسه.

فمما لاشك فيه أن قوة ابراز العواطف والانفعالات هى الغالبة (وأن هذا اللون هو الذى يطبعها ويغلب فيها على الألوان الأخرى)[1].

والتناسق واضح فى درجة تطور العواطف والانفعالات كما أن القصة ذات إطار دائرى مكتمل التكوين حيث بدأت القصة بمفاجأة وانتهت بمفاجأة . فالمفاجأة الأولى ذاتية خاصة بمريم والثانية عامة بالجماعة وبالناس. وفيها الدليل الاشارى إلى الغرض الدينى.

لقد كرم القرآن مريم التكريم الذى يليق بها، إذ بينما يفترى اليهود عليها، نزها الله من هذا الافتراء، وبينما يتهمها هؤلاء بالفاحشة، يبرئها القرآن ويعتبرها قديسة طاهرة.

(١) التصوير الفنى- سيد قطب١٩٩.

المرأة.. الحكمة والرأى الصائب

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [١].

تتحدث الايات الكريمة عن صلح الحديبية الذى تم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين فى السنة السادسة من الهجرة، والذى كان بداية للفتح العظيم- فتح مكة- حيث تم النصر للمسلمين ودخل الناس فى دين الله أفواجاً.

ولقد جاءت البشارة بلفظ الماضى لتحققه. قال الزمخشرى: هو فتح مكة وقد نزلت أثناء رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة يوم الحديبية- وهو وعد له بالفتح وجىء بلفظ الماضى على عادة رب العزة سبحانه فى إخباره لأنها فى تحقيقها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن الفتح مالا يخفى [٢]:

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالفتح «صلح الحديبية» لما ترتب عليه من الآثار العظيمة من

(١) سورة الفتح : ١-٥.
(٢) الكشاف جـ٤.

بيعة الرضوان ومن الصلح الذي عقده رسول الله مع قريش ومن دخول كثير فى الإسلام[1].

وخلاصة الموقف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أنه يدخل الكعبة هو والمسلمون محلقين ومقصرين.. وحدث بها أصحابه فاستبشروا وفرحوا فرحاً شديداً.. وخرج الرسول معتمرا لا يريد حرباً واستنفر العرب ومن حوله من البوادى، فأبطأ كثير من الأعراب، ومضي الرسول بمن معه من المهاجرين والأنصار، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه.

وعلمت قريش بمسير الرسول فخرجوا إليه فى قوة وعدد ليمنعوه ويواجهوه: ومشت الرسل بين الرسول وقريش حتى استطاع سهيل بن عمرو أن يعقد صلحا مع الرسول فى الحديبية. وتضمن الصلح أن (من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه).

ولقد انزعج المسلمون بهذا الصلح.. وفارت قلوبهم بالانفعالات. فلقد كانت أنظارهم تتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله بدخول المسجد الحرام.. وها هم سيرجعون عن البيت بعد إحرامهم وسوق الهدى معهم.. وكان ذلك شاقا عليهم جميعا حتى أن عمر بن الخطاب- فيما يروى- جاء إلى أبى بكر وهو مهتاج قائلا:

- أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟

قال أبوبكر: بلى: أفاخبرك أنك تأتيه العام.

قال: لا:

قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

فتركه عمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال:

.. أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟

قال صلى الله عليه وسلم: بلى.. أفاخبرتك أن نأتيه هذا العام؟

قال: لا.

قال صلى الله عليه وسلم: فإنك آتيه ومطوف به.

وكان المؤمنون فى ضيق شديد بشروط قريش.. خاصة أن حميتهم كانت بالغة الشدة وحماستهم لدينهم فاقت كل تصور، بدليل بيعة الرضوان.. وذلك بعدما علم المسلمون - خطأ- بمقتل عثمان بن عفان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قريش- لإبلاغهم

(١) صفوة التفسير جـ٢.

رغبة الرسول فى أداء العمرة والطواف بالبيت، ثم ينتهى الأمر على ما كان عليه من المصالحة.. فلم يكن هذا عليهم ألا يطوفوا وألا يحلقوا ويقصروا وينحروا الهدى.. وشعروا بأنهم- فى ظاهر الأمر- قد لحق بهم العار حين أعطوا الدنية ووافقوا على شروط قريش.

جاء عمر بن الخطاب إلى النبى وقال: ألست نبى الله حقاً؟

قال: بلى، قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فلم نعط الدنية فى ديننا إذن.. قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري"[1].

ومع ذلك فلقد كان صلح الحديبية فتحاً فى الأرض، فقد امن المسلمون شر قريش فاتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تخليص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودى. كما كان صلح الحديبية أيضا تجربة هزت أعماق المسلمين وامتحاناً لهم فى إيمانهم وتمسكهم بعقيدتهم- تلك التجربة التى خرج منها المسلمون كأقوى ما يكونون بالرغم من الظلال التى اكتنفتها والمشاعر التى نتجت عنها.

وفي هذه التجربة.. برز دور امرأة من أعظم النساء عقلاً وحكمة وصواب رأى: إنها أم سلمة، هند بنت أمية، زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عريقة المنبت ذات جمال واباء وفطنة.. فأبوها أحد أبناء قريش المعدودين . لقِّب بزاد الركب، إذ يكفى رفقته من الزاد.. وأمها عاتكة بنت عمر بن ربيعة الكنانية، وزوجها الأول عبدالله بن عبدالأسد «الصحابى ذو الهجرتين ابن عمة الرسول: برة بنت عبدالمطلب بن هاشم، وأخوه- صلى الله عليه وسلم- من الرضاعة أرضعتهما ثويِّبة مولاة أبى لهب».

وكانت أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة كما كانت أول مسلمة هاجرت إلى الحبشة.

وحين توفى زوجها وانقضت عدتها (بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب يخطبها عليه فقالت: مرحبا برسول الله ورسوله، أخبر رسول الله إنى امرأة غيرى وأنى مصبية وأنه ليس أحد من أوليائى شاهد. فبعث إليها رسول الله. أما قولك أنى مصبية فإن الله سيكفيك صبيانك، وأما قولك أنى غيرى فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم شاهد ولا غائب إلا سيرضانى)[2].

وتم الزواج.. وكانت أم سلمة ذات عزة وجمال.

تقول عائشة رضى الله عنها: ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة حزنت

(١) انظر صحيح البخارى وسيرة ابن هشام.

(٢) أعلام النساء جـ٥ ص٢٢٢ عمر رضا كحالة.

حزناً شديدا لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفت حتى رأيتها فرأيت والله أضعاف ما وصفت لى فى الحسن والجمال.

صحبت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رحلته إلى مكة حيث تم صلح الحديبية والذى وصفه القرآن بالفتح المبين. وكان لها دور جليل لم ينسه التاريخ.

وكانت نموذجاً للمرأة صاحبة العقل الصائب، والفضل فى حفظ كيان الجماعة من التصدع.. والموقف يثبت أن المرأة عنصر فعال وحيوى.. وتحدد هذا العنصر بعدما أعلاها الإسلام ورباها رسول الله صلى الله عليه وسلم «فشاركت في الدعوة وشاركت فى الهجرة، وشاركت فى الابتلاء، وشاركت فى الرأى، وشاركت فى الغزو، وشاركت فى العلم، وشاركت فى الرواية، وشاركت في الاجتهاد، وشاركت فى التأمين من الأعداء»[1].

والتاريخ النبوى يحدثنا عن الدور الذى قامت به المرأة فى حفظ الجماعة الإسلامية ووقايتها من التدهور إثر أزمة داخلية. أحدثتها شروط الصلح التى تمت الموافقة عليها من المسلمين وكفار قريش واعتبر المسلمون قبولها نوعاً من الذلة.. كما قلنا آنفاً.

وحين شرع رسول الله فى تنفيذ المعاهدة، وأمر المسلمين بالتهيؤ للرجوع إلى المدينة. وطلب منهم التحلل من الإحرام، عظم الأمر فى النفوس وتباطأ عن تنفيذ الطلب. ولاح فى الأفق نوع من التمرد على تعاليم الرسول. وغضب الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجس شراً، وخاف.. على المسلمين من عاقبه عصيانه. أزمة داخلية، اشتدت، ترى ما المخرج من هذه الأزمة؟؟ ومن يساهم فى حلها؟ هنا يبرز دور أم سلمة صاحبة العقل الراجح والرأى الصائب.

وإذا كانت الجماعة الإسلامية فى خطر محدق، فإن الرأى الذى ساهم فى حفظ الجماعة ودرء الخطر عنها ليسموعاليا وتسمو معه صاحبته، ويظل التاريخ يذكر لها هذا الموقف العظيم. فها هو الرسول صلى الله عليه وسلم قد دخل عن أم سلمة مهتما، حزينا، صائحا: هلك المسلمون يا أم سلمة.. وفى رواية: قالت : ماخطبك يارسول الله؟.. قال صلى الله عليه وسلم: هلك القوم.. دعوتهم للتحلل والحلق والنحر فلم يلبوا ولم يجيبوا.

وكان المنادى قد نادى بأمر من الرسول: «لقد قضى الأمر، وعقد العهد، فتحللوا من إحرامكم، وانحروا بدنكم، واحلقوا أو قصروا شعوركم، ثم شدوا إبلكم للرحيل . والتفت المنادى فإذا نفوس معترضة، وعزائم مترددة، وعيون زائغة وقلوب حائرة، وصاح الثانية فلم يجيبوا، ودعا الثالثة فلم يلبوا»[2].

وقالت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اعذرهم يارسول الله، فلقد حملت

(١) من توجيهات الإسلام ص٢٢٢.
(٢) قصص القرآن ص٣٢٣.

نفسك أمراً عظيماً في الصلح، ورجعوا دون فتح ولا حج، فهم لذلك مكروبون، والرأى أن تخرج فتبدأ بما تريد، وإن لهم منك لأسوة حسنة وقدوة كريمة، فإذا رأوك فعلت تبعوك، وعلموا أن الأمر حتم، وهم مؤمنون بك، مضحون من أجلك ومن أجل الإسلام.

وانشرح صدر الرسول واطمأن إلى الرأى الناضج، و«قالت له أم سلمة: «يانبى الله، أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك . فقام صلى الله عليه وسلم فخرج ولم يكلم أحدا منهم كلمة، فنحر بدنته ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما) [1].

وهكذا لم يكد المسلمون يرون رسول الله يذبح ويحلق حتى تواثبوا إلى الهدى فنحروا والى الرأس فحلقوا، ثم رجعوا إلى المدينة كأقوى ما يكون: ملتزمين بعهدهم، مؤمنين بحكمة رسولهم. وبذلك خرج المسلمون من أزمة حادة وعصمهم الله من الفرقة والفتنة.. وكان ذلك بفضل رأى أشارت به أم سلمة على رسول الله.. تلك المرأة التى تربت فى أحضان الإسلام فثبتت على الطهارة وأعطاها الله سبحانه الرأى الحكيم والفكر السديد.

ولقد أخذ رسول الله برأى زوجته فى أمر من أشق الأمور اعترافا بصواب رأيها وحكمته.

(١) أعلام النساء جـ٥ ص٢٤٤. وانظر صحيح البخارى وسيرة ابن هشام.

المجادلة.. الشاكية إلى الله

قال الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

سورة المجادلة سورة مدنية تتناول بعضا من شئون المجتمع المدنى الإسلامى على المستوى الأسرى الخاص وعلى المستوى العام. وهى فى كلتا الحالتين تربى وتقوِّم وتصحح الأوضاع المنحرفة وتكشف عن الفاسد من السلوك، ساعية إلى بناء النفوس وفق المنهج القرآنى ومعالجة الأحداث والعادات والنزوات. ولعلنا نلاحظ كيف أن السماء تتدخل فى شأن يومى لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة لتقرر حكم الله فى قضيتها، وقد سمع سبحانه المرأة وهى تحاور رسوله. وهى صورة تملأ القلب بوجود الله ورعايته.

(١) سورة المجادلة ١ - ٤ .

والآيات تكشف عن نوع من نكاح الجاهلية أبطله الإسلام لتعسفه بالمرأة.. ذلك أن الرجل في الجاهلية كان إذا غضب من امرأته لأمر ما قال لها أنت عليّ كظهر أمي، فتحرم عليه. والآية توضح هذا النوع من التحريم وتبطله.

«قال الإمام الفخر: الظهار هو عبارة عن قول الرجل لامرأته: أنت على «كظهر أمي، يقصد علوى عليك حرام كعلوى على أمي، والعرب تقول في الطلاق نزلت عن امرأتي، أي طلقتها فغرضهم من هذه اللفظة تحريم معاشرتها تشبيها بالأم.. وقول (منكم) توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار لأنه كان إيمان أهل الجاهلية خاصة دون سائر الأمم»[1].

وكانت المرأة في هذه الحالة تحرم على الزوج- ولا تطلق أيضا:

فتصبح موقوفة لاكيان لها. فلا تحل له فتنشأ الصلة الزوجية، ولا تطلق فتجد لها طريقا آخر. وكان هذا طرفا من العنت الذي كانت تلاقيه المرأة في الجاهلية واستمر معها حتى جاء الإسلام وأبطله.

وهذا العنت الذي وقع على المرأة هو موضوع الآيات وهو الإشارة القرآنية إلى القصة.. قصة المرأة التي جاءت تجادل الرسول في هذا الأمر.. «وهذا هو الشأن الذي أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سماوات، ليعطي للمرأة حقها، ويريح بالها وبال زوجها، ويرسم للمسلمين الطريق في مثل هذه المشكلة العائلية اليومية. وهذا هو الشأن الذي تفتتح به سورة من سور القرآن، كتاب الله الخالد، الذي تتجاوب جنبات الوجود لكل كلمة من كلماته، وهي تتنزل من الملأ الأعلى.. فإذا الله حاضر في هذا الشأن الفردي لا مرأة من عامة المسلمين لا يشغله عن سماعها تدبيره لملكوت السموات- والأرض..» [2].

نزلت الآيات في هذه المرأة المسلمة الشجاعة في أمور دينها، الحريصة على أسرتها، والأم التي تخشى على أولادها من الضياع أو الفقر، والزوجة المسلمة التي لا تحب أن تحرم على زوجها، بفعل عادة جاهلية مذمومة.. والعاقلة الراغبة في المشورة واستيضاح أمور دينها.

ولنقف على القصة من صاحبتها نفسها.. ومما ورد في الروايات.. كانت خولة بنت ثعلبة زوجة لأوس بن الصامت، وكانت حسناء جميلة، على حين كان زوجها هرما متعبا.. وعاشا معا زمنا طويلا.. وفي يوم قامت تصلي وأراد مواقعتها فأبت فغضب منها، وظاهرها!

ولما سألت زوجها عما يعنيه بقوله: أنت عليّ كظهر أمي.. جاء قوله عنيفا وخطيراً معا: قال: ما أظنك إلا حرمت عليّ.. فاسقط في يدها وحارت في أمرها وشق عليها أن تفارق زوجها الذي سكن إليها وسكنت إليه أعواما وطويلة.

---

(١) صفوة التفاسير جـ٣ ص٣٣٥.

(٢) الظلال جـ٦ ص٣٥٠٦.

وأسرعت خولة إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم، وذهنها مشغول بالأمر كله. وكيف لا تنشغل وهى الأم، والزوجة والغيور على دينها. ذهبت إلى النبى تشكو إليه هذا الوضع الظالم.

قالت : يا رسول الله إن أوسا ظاهر منى بعد أن كبرت سنى ورق عظمى. وأن لى منه صبية صغاراً، ان تركتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليَّ جاعوا.. فماترى؟

وأجابها النبى صلى الله عليه وسلم جوابا لم تكن تحبه أو تتوقعه:

- ما أراك إلا قد حرمت عليه.

وفزعت خولة وتابعت شكاتها..

- يا رسول الله أكل مالى.. وأفنى شبابى، ونثرت له بطنى، حتى إذا كبرت سنى، وانقطع ولدى، ظاهر منى: «فما ترى؟؟» وأعاد النبى ما قاله لها: ما أراك إلا قد حرمت عليه..

وازدادت حسرتها، واشتد حزنها وقوى ألمها وظلت تجادل الرسول وتقول له في آسى وخوف.

- لا تقل ذلك يارسول الله. والذى أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا.

وما كان للرسول أن يقضى فى الأمر، فمرجعه السماء وهو لم يتلق فى الأمر وحيا.

وظلت مع الرسول تحاوره وتجادله والرسول يردد ما قاله لها.. واتجهت إلى الله سبحانه وبسطت يدها باكية داعية:

- اللهم إنى أشكو إليك فاقتي ووجدى وماشقٌ على من فراق زوجى فانزل ما يفرج كربى.

وبينما هى تتضرع إلى الله ملتجئة شاكية آملة متذللة، إذ غشى النبي ما كان يغشاه حين ينزل الوحى.. واستجاب الله.. وهنالك أخبرها بأن الله قد سمع شكاتها وجدلها.. وتلا عليها صلى الله عليه وسلم آيات الظهار.. وكفارته.. وقرت عينها وانفجرت أساريرها فقد حقق الله رجاءها.

قالت: فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: مريه فليعتق رقبة (أى زوجها).

قلت: يارسول الله ما عنده ما يعتق.

قال: فليصم شهرين متتابعين.

قالت: فقلت : والله أنه لشيخ ماله من صيام.

قال : فليطعم ستين مسكينا وسقاً من تمر.

قالت:.. فقلت: والله يارسول الله ماذاك عنده:

قال: فإنا سنعينه بعرق من تمر «العرق ستون صاعا».

قالت: وأنا سأعينه بعرق آخر.

قال: قد أصبت وأحصنت فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيراً.

ثم استدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسا ليتعرف على مانزل فيه من الوحي.

فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- أتستطيع أن تحرر رقبة؟

قال: لا يارسول الله، فإني قليل المال.

- إذن فصيام شهرين متتابعين.

قال: لولا أني آكل في اليوم مرة أو مرتين لكل بصرى وظننت أني أموت.

- اذن فإطعام ستين مسكينا.

قال: لا.. إلا أن تعينني فيه.

فمد النبي له يد المساعدة.

وبذلك صارت الزوجة حلالا له.. وخرج الزوجان فرحين برحمة الله.

وعملت خولة بوصية الرسول حين قال لها: ياخولة إن ابن عمك شيخ كبير ، فاتقي الله فيه.

وتعطينا القصة بعضا من الدلالات المنبثقة من الموقف الذي قامت به خولة. وكذلك السمات الانسانية التي نستقيها من تطور الحدث وتشابكه.

فثمة لوعة «تجلت في شكاة خولة الفازعة من فراق زوجها الوشيك بعد عشرة طويلة، فراقها لأوس على صبية لها منه.. لقد بدت تتلهف وتتشوق إلى رخصة ترجوها على لسان النبي ، تنعشها هي وأوساً مما حدث لهما.. وثمة روعة تتبدى في هذا الحرص على ألا تنفصم الرابطة الزوجية بينها وبين أوس والد أولادها وأحب الناس إلى فؤادها، كما تبدو الروعه في مجادلتها للرسول وتكرارها بأن زوجها لم يذكر طلاقًا، فضلا عن روعة توجهها إلى السماء راجية آملة.. ثم تعطينا القصة المتعة في النهاية وقد انتهت الأزمة وخرج الزوجان من عند رسول الله مسرورين فرحين.. وقد أدركتهما رحمة الله وشملتهما رعايته[1].

(1) انظر القصص الرمزى فى القرآن الكريم ص٢٩ وقصص القرآن ص ٣٦٠ وانظر صحيح البخارى. وورد عند الترمذى موجزاً.

وتمر الأيام ويموت زوجها أوس . ويتناسى الناس المجادلة خولة بنت ثعلبة حتى كان يوم فى خلافة عمر بن الخطاب.. وذلك حين خرج عمر من المسجد ومعه (الجارود العبدى) فإذا بأمرأة برزت على ظهر الطريق، فسلم عليها عمر فردت السلام.. وقالت هيهات ياعمر.. عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ ترعى الشاة بعصاك فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين فاتق الله فى الرعية، واعلم أن من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشى عليه الفوت.

«فقال الجارود: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين..

قال عمر: دعها: أما تعرفها ، فهذه خولت بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت التى سمع الله قولها من فوق سبع سموات، فعمر والله أحق أن يسمع لها [1].

(١) نساء انزل الله فيهن قرانا جـ٥ ص١٩٥.

العفيفة المتهمة.. وحديث الإفك

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

لعلنا ندرك أن هذا النوع من القصص القرآني والذى نحن بصدده.. يندرج تحت ما يسمى بأسباب التنزيل.. وفى هذا المجال فإن القرآن الكريم يساير الحوادث والوقائع فى حينها وينبه على الأخطاء فى وقتها..

وذلك أوقع فى النفس وأدعى إلى العبرة عبر الواقع العملى. فكلما جد جديد نزل القرآن

(١) (النور آيات ١١- ١٧ .

بما يناسبه، وكلما حدث خطأ أو انحراف نبهم القرآن وحذرهم.

وهذا اللون القصصى هو ما يمكن أن نطلق عليه القصص الاشارى، وهو الأحداث والوقائع والقضايا والمشكلات التى جاء القرآن العظيم ليعطى فيها العبرة والموعظة أو الحكم أو الحل، أو يكشف سر أصحابها من براءة أو خيانة وصدق أو كذب ووفاء أو غدر» [1].

وهذا النوع من القصص يتضمن الإشارة إلى الفعل ،الحدث، القصة.. ثم هو يعطى الحكم فى النهاية فى اقتضاب أو إطناب حسبما يتأتى السياق القرآنى ويتطلبه.

وحديث الإفك يقع ضمن هذا النوع الإشارى من القصص القرآنى.. ولقد وردت الآيات فى سورة النور.

وسورة النور تدور حول محور التربية التى تشتد فى وسائلها إلى درجة الحدود وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية.. ومن خلال الشدة واللين تتربى الضمائر وتتحدد المقاييس الأخلاقية، وتتداخل الآداب النفسية الفردية وآداب البيت والأسرة وآداب الجماعة والقيادة، بوصفها نابعة من معين واحد وهو العقيدة الإسلامية.. ومن ثم وردت الحدود التى نظمت العلاقة بين الرجل والمرأة.. وكان حد الزنا هو الحد الذى بدأت به السورة لتفظيع تلك الفعلة الشائنة، وكان القرآن حاسما فى إقامة الحد على مرأى من الناس ليكون أوجع وأوقع فى النفوس: كما بينت السورة الكريمة حد القذف واشتدت فى صيانة الأعراض حماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التى تصيبهم «إن ترك الألسنة تلقى التهم على المحصنات - وهن العفيفات الحرائر ثيبات وأبكارا- بدون دليل قاطع، يترك المجال فسيحا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئا بتلك التهمة النكراء ثم يمضى آمنا.. فتصبح الجماعة وتمسى.. وإذا أعراضها مجروحة وسمعتها ملوثة.. وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام.. وهى حالة من الشك والقلق والريبة لاتطاق» [2].

وحديث الإفك الذى نحن بصدده نموذج للقذف بما يثيره من آلام نفسية حادة وبشاعة فى الجرم -إذ يتناول شرف عائشة رضى الله عنها- بالسوء.. وهى منه بريئة.. ولقد كلف أطهر النفوس آلاما لاتطاق، وكلف الأمة تجربة من أصعب التجارب، وأدمت القلوب تلك المدة التى استغرقت شهرا بما تثيره من شك وقلق وحيرة وألم نفسى حاد.. حتى نزل الوحى بالبراءة.

(١) القصص الرمزى فى القرآن الكريم. احمد محمد جمال ص ٧

(٢) الظلال جـ ٤ ص ٢٤٩٠.

وعائشة رضى الله عنها هى زوج الرسول صلى الله عليه وسلم وأحب نسائه إلى قلبه.. وهى بنت أبى بكر الصديق، أفضل الرجال عند الرسول، وهى إبنة أم رومان الأم الفاضلة والزوجة البارة والسيدة الحكيمة، والتى قال عنها الرسول «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان».

لقد شبت فى جو أسرى جميل، تكتنفه الرعاية والمحبة والدين القويم بين أب هو ثانى اثنين.. وأم تتجسد فيها معانى الأمومة الحقة، ثم فى بيت النبوة حيث نمت على عين رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ومن ثم فقد وعت الكثير، فقها وحديثا، وطبا وشعرا، ولم يكن عجيبا أن يقول فيها الرسول «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء».

وكانت عائشة «حبيبة إلي رسول الله، قريبة إلي نفسه، شيقة إلي قلبه، لايفارقها حتى يعود إليها، ولايذهب إلا ويؤوب وملء فؤاده شوق وحنين» [١].. ولقد كان لها دور لاينكر فى حياة الرسول، وفى تخفيف بعض ما كان يعانيه من تبعات الدعوة. ولقد كانت تفخر على أزواج النبى بعشر خصال «صورت لرسول الله قبل أن أصور فى رحم أمى، وتزوجنى بكراً ولم يتزوج بكرا غيرى، وكان ينزل عليه الوحى وهو بين سحرى ونحرى، ونزلت براءتى من السماء، وكنت أحب الناس إليه، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه، ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيرى، ولم ينكح امرأة أبواها مهاجران غيرى، وكنت أغتسل أنا وهو فى إناء واحد، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه، وقبض الله نفسه وهو بين نحرى وسحرى، ومات الليلة التى كان يدور على فيها، ودفن فى بيتى» [٢].

وامرأة هذا شأنها أصالة، وبيتا كريما، وجمالا، وعلما غزيرا.. فضلا عن حب الرسول لها، قلما تسلم من حقد الحاقدين وبهتان الكذبة، ومكر المنافقين.

تحدثت عائشة رضى الله عنها عن تجربة حديث الإفك فقالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بيننا فى غزاة [٣]، فخرج سهمى، فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب، وأنا أحمل فى هودج وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة أذن ليله بالرحيل، فقمت حين أذنوا بالرحيل حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت التمسه فحبسنى ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين يرحلوننى،

(١) نساء أنزل الله فيهن قرآنا، د.عبدالرحمن عميرة ص٣٧.
(٢) المصدر السابق ص٤٠، اخرجه الحاكم فى المستدرك ٤ / ١٠.
(٣) غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة من الهجرة.

فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري، وهم يحسبون أني فيه. وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم وإنما نأكل العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج، فحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش -فجئت منزلهم وليس فيه أحد منهم، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة غلبتني عيناي ونمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي. والله ما يكلمني بكلمة ولاسمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها، فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش، بعدما نزلوا معرسين، فهلك في شأني من هلك. وكان الذي تولى كبر الإثم عبدالله بن أبي سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر، وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكى، إنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف فذلك الذي يريبني منه - ولا أشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا، وكنا لانخرج إلا ليلا، وذلك قبل أن نتخذ الكنف.. فأقبلت أنا وأم مسطح -وهي ابنة أبي رهم بن عبدالمطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب. حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلا شهد بدرا؟

فقالت: يا هنتاه، ألم تسمعي ما قال؟

فقلت وماذا قال؟

فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل رسول الله -صلى الله عليه وسلم فقال: كيف تيكم؟

فقلت له: إئذن لي أن آتي أبوي.. وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي، فأتيت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لايرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي -فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله.

قلت: فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه من الود لهم.

فقال أسامة: هم أهلك يا رسول الله ولانعلم والله إلا خيرا.

وأما على بن أبى طالب فقال: يارسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تخبرك، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال لها: أى بريرة.. هل رأيت فيها شيئا يريبك؟ فقالت: لا والذى بعثك بالحق نبيا إن «ما» رأيت منها أمراً أغمصه «أعيبه» عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتى الداجن «الشاة فى البيت» فتأكله.

قالت: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه، واستعذر من عبدالله ابن أبى سلول، فقال وهو على المنبر: من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلى إلا معى.

قالت: فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلا صالحا ولكن أخذته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله، لاتقتله ولاتقدر على ذلك، فقام أسيد بن خضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتله، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكنوا ونزل.

وبكيت يومى ذلك لايرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بقيت ليلتى المقبلة لايرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح أبواى عندى، وقد بكيت ليلتين ويوما، حتى أظن أن البكاء فالق كبدى. فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكى معى، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جلس ولم يجلس عندى من يوم قيل فى ما قيل قبلها، وقد مكث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشىء، فتشهد حين جلس ثم قال: أما بعد فإنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله تعالى وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله تعالى عليه.

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه بقطرة.

قلت لأبى: أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال.

قال: والله لا أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقلت لأمى: أجيبى عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال.

قالت: والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قالت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن.

فقلت: إنى والله أعلم أنكم سمعتم حديثا تحدث الناس به واستقر فى نفوسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم انى بريئة لاتصدقونى بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى، فوالله ما أجدلى ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

ثم تحولت فاضطجعت على فراشى، وأنا والله أعلم أنى بريئة، وأن الله تعالى مبرئى ببراءتى. ولكن ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى فى شأنى وحيا يتلى ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤيا يبرئنى الله تعالى بها.

فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، فسرى عنه وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى: يا عائشة إحمدى الله تعالى، فإنه قد برأك.

فقالت لى أمى: قومى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله تعالى، هو الذى أنزل براءتى.

فأنزل الله تعالى «إن الذين جاءوا بالافك..» فلما أنزل الله تعالى هذا فى براءتى، قال أبوبكر الصديق رضى الله عنه وكان ينفق على مسطح بن اثاثه لقرابة منه وفقر، والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشة.

فأنزل الله تعالى «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى» إلى قوله «والله غفور رحيم»، فقال أبوبكر رضى الله عنه: بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى، فأرجع إلى مسطح النفقة التى كان يجرى عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا»[1].

ولعلنا نلاحظ من خلال هذا السرد الجميل، والذى هو موقف قصصى بالكامل، ملامح

(١) انظر صحيح البخارى جـ٥. وتفسير ابن كثير جـ٣. والظلال جـ٤.

الشخصيات التى وردت بالنص.. فعـائشة رضى الله عنها ترمى بسوء وهى عنه غافلة، فهى لاتتوقع شـرا، ولكنها وقد حدث مـا حدث، لم تستـسلم لما أشاعه المغرضـون وعلى رأسهم عبدالله ابن أبى سلول، فلقد كانت واثقة من براءتها ترجو الله أن يبرئها مما رميت به.

وانظر إلى المفـاجأة التى أحـدثتها أم مـسطح.. فيـزداد الألم التفسى وهى المـهدودة بمرض الحمـى الذى يعاودها.. وتلجـأ إلى أبيهـا.. ويأتى السهـم الأخير فـيختـرق قـلبهـا اختـراقا ويدميـه.. وذلك حين يطلب منها الرسول أن تتوب عن ذنبهـا.. لقد شعرت من حـديثه أنه لايستيقن من طهارتها.. فتصبح وتمسى باكية حزينة على موقف الرسول منها.

ولقد تألمت كل الشخـصيات التى دار حولها الموقف القصـصى كله.. فأبوبكر يقف حائراً حزيناً بين حبه لابنتـه وحبه لرسول الله وقال قولته الحزينة « والله ما رمـينا بهذا فى جاهلية، افنرضى به فى الإسلام؟ وأم رومـان زوج الصديق وأم عـائشة تتمـاسك أمام ابنتهـا المريضة والمتهمـة.. والألم يعصرها عصـرا.. وصفوان بن المعطل المجاهد فى سـبيل الله يتحمل عـبئا نفـسيا لاتـقوى عليـه نفس فهـو المتهم بخيانة النبى فى زوجتـه عـائشة.. وهو اتهـام ظالم، ويمضى يردد: سبحان الله، والله مـا كشفت كتف انثى قط.. ثم ها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى فى بيتـه.. وفى عائشة التى حلت من قلـبه مكان الابنة والزوجة والحبـيبة.. ويثقل عليه العبء ويستشير صحـابته والفرية تفوح فى المدينة وقلبه الإنسانى المحب لزوجته الصغيرة يتعذب بالشك.. فهو فى النهاية بشر.

وعبدالله بن أبى سعى فى المدينة بهذا الحديـث إمعانا فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهـازه الفرص وطلبه سبـيلا إلى الغميـزة.. لقد كان (بلاء مبـينا ومحنة ظاهرة وأنه نزلت فيه ثمـانى عشر آية كل واحدة منهـا مستقلة بما هو تعظيم لشـأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت وتهويل لمن تكلم فى ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه..) [1].

إنها معركة خاضتـها الجماعة المسلمة ضد الشائعة الخاطئة التى استـهدفت اختراق الجماعة الإسـلاميـة وضرب وحـدتهـا والنكاية بالإسـلام.. ومن ثم فلقد وجـدنا المخلصـين لدينهم لاينساقون وراء هذا الضلال المخادع وظلوا على يقين من طهارة عائشة.

روى ابن إسحـاق: أن أبا أيوب الأنصارى قـالت له امرأته أم أيوب: يـا أبا أيوب، أما تسـمع ما يقول الناس فى عائشة رضى الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟

(١) الكشاف جـ٣ ص ٦٤/٦٥.

قالت: لا والله ما كنت لأفعله، ثم أضافت فعائشة خير منى.

إن الحدث العظيم والخطأ الجسيم والشر الكامن فيه يصيب الجماعة بالسوء، ولكن فضل الله عميم، ورحمته واسعة.. فهو يربيهم بهذه التجربة.. حتى لايتبعوا خطوات الشيطان، والله يزكى من يشاء.. فنور الله يشرق فى القلب فيطهره ويزكيه.

لقد كان حديث الافك حادثاً خطيراً «تعرضت فيه الجماعة المسلمة لأكبر محنة، إذ كانت محنة الثقة فى طهارة بيت رسول الله، وفى عصمة الله لنبيه أن يجعل فى بيته إلا العنصر الطاهر الكريم، وقد جعلها الله معرضا لتربية الجماعة المسلمة حتى تشف وترتفع إلى آفاق النور»[1].

ولقد ندد القرآن الكريم بمن يرمى المحصنات من النساء ابتغاء الفتنة ووعدهم بعذاب أليم فى الدنيا والآخرة إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لاتؤذوا عباد الله، ولا تعيروهم، ولاتطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته».

(١) الظلال جـ٤ ص ٢٥٠٦.
(٢) سورة النور/ ١٩ .

المرأة..
الكيد والغيرة وإفشاء السر

قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾[1].

★★★

هذه الآيات الكريمة من سورة التحريم، وهي من السور المدنية التي تتناول بعضا من القضايا والأحكام التي ترتبط بأمهات المؤمنين وبيت النبوة، وذلك من أجل

(١) سورة التحريم ١ - ٥ .

إرســاء قــواعد الحيــاة الأسـرية فى البـيت المسلم، وإبراز النمـوذج الكامل للأسـرة المسلمة.

وتناولت السورة جـانبا سلوكيـا مهمـا له خصوصـيته المتفـردة فى الحياة الزوجـية ألا وهو إفشاء السر، الذى يهدد الحياة الزوجية بالفشل ويحمل معه عواصف من الانفعالات لاتبقى على شىء، ولعل الآيات هنا تحدد لنا هذا الملمح التكوينى فى نفسيـة المرأة وهو ضعفها أمام الأسرار، ورغبتـها الملحة فى إفشاء ما يسر به إليـها.. حتى ليصدق عليهـا القول بأنها غربال الأسرار. كـما حـملت الآيات الكريمـة حملة شـديدة عنيفـة على أزواج النبى حيـن حدث بينهم هذا التنافس وتلك الـغيرة بعـضهم من بـعض لأمور يسـيرة.. وهى صفـة تلازم المرأة خاصـة فى مجال الـزوجية، وحـين يكون الزواج بأكثـر من امرأة، فـيصبح التنافس والغـيرة ملمحا من ملامح المرأة، ويضـحى السلوك حاضرا فى كل موقف، ومتشحاً بهـاتين الصفتين الجالبتين لكثير من الآلام والأوجاع.

إننا أمـام صفحـة من الحيـاة البيـتية لرسول الله، وصـورة من الانفعـالات والاستـجابات الإنسانيـة وانعكاس هذه الانفعالات فى حـياته، وفى حيـاة الجماعـة المسلمة. إذ ليس له فى نفسه شىء خاص فهو للدعوة كلها، حياته الخاصة والعامة كتابٌ مفتوح للأمة وللبشرية معا «ومن ثم لايجعل فيها سراً مخبوءاً ولاسترا مطويا، بل يعرض جوانب كثيرة منها فى القرآن، ويكشف منهـا ما يطوى عـادة من الناس فى حـياة الإنسـان العادى، حـتى مواضع الضـعف البشرى الذى لاحيلة فيه لبشر، بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد فى كشف هذه المواضع فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم للناس»[1].

وتكشف الآيات عن المغـاضبـة والتظاهر والتـآمر بين الـزوجات من أجل الوقـيعـة وقطع الصلة والإسـاءة إلى الآخـرين. وهو من نتـاج الغـيـرة التى تسيطر على القلوب وتحـتوى العقول. ذلك أن الغـيرة إذا سادت ضلّ العقل، وقل الإدراك، ولهث النفس لهوا يوقـعها فى الخطأ، مما تحتاج النفس فيه إلى تعديل السلوك بتطهير القلب من حمأة العواطف الغليظة.

ونقف وقفة قـصيرة مع الشخصـيـات التى دار حولها هذا الحدث القـصصى الذى أشارت إليه الآيات السـابقة.

فعـائشة رضى الله عنها كـانت تحب الرسول وتغار وعليـه -وكانت صغـيرة السن- وربما كانت حداثة السن وراء هذه الغيرة.. ومن ثم فقـد اكتمل نموها فى بيت الرسول (ونضجت شخصيتها) وتدرجت بين عينى الرسول من صبية يأتيها زوجها بصواحـبها ليلعبن معها، أو

(١) الظلال جـ ٦ ص ٣٦٠٩

يحملها على عاتقه لتطل على نفر من الحبشة يلعبون، إلى شابة ناضجة مجربة، تسألها امرأة في مسألة دقيقة من مسائل الزينة فتجيبها «إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هي فافعلي»[1].

وكانت رضي الله عنها تسيطر عليها الغيرة أحيانا فتدفعها إلى أمور تغضب رسول الله وتقلقه.

والغيرة إحدى صفات المرأة التي لاتنتخلى عنها، والغيرة في طبائع النساء ألوان: تغار المرأة على قلب الرجل الذي تحبه، وتغار المرأة من المرأة الجميلة وتغار من شريكتها في رجلها كائنا ما كان حظهما من الجمال، وكانت عائشة تغار على الرسول أشد غيرة عرفتها امرأة على زوجها «وربما خرج من عندها في ليلتها، فإذا هي تتبعه إلى حيث ذهب مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتها».. وكان عليه السلام يمر ببعض العجائز فسألته عائشة في ذلك فقال: إن خديجة أوصتني بها.. فقالت مغضبة: خديجة.. خديجة.. خديجة.. لكأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة.. وسألته مرة ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيرا منها، فأسكتها قائلا: والله ما أبدلني الله خيرا منها، آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها»[2].

وحفصة رضي الله عنها، تزوجها الرسول ثيبا، وهي العابدة القوامة ابنة عمر بن الخطاب. حين مات زوجها الأول في غزوة أحد بجراحات عدة، لاحظ عمر على ابنته ما تعانيه من قلق وحزن ورأى أن الزواج سيخرجها من حزنها ويعيد إليها سعادتها فعرضها على عثمان، ولكنه اعتذر، ثم عرضها على أبي بكر ولكنه سكت ولم يحر جوابا.. وحين أخبر عمر رسول الله بالأمر قال له صلى الله عليه وسلم «ياعمر: قد زوج الله عثمان خيراً من ابنتك وزوج ابنتك خيراً من عثمان».

وكان بين حفصة وعائشة بعض النفور في البداية، ولكن ما أن كثرت أمهات المسلمين حتى رأت عائشة أن تستعين بحفصه فيما تفعله في الزوجات الأخريات وانحازت حفصة لجانب عائشة.

وهكذا شاركت حفصة في أساليب الغيرة وما يترتب عليها من أفعال.. ولقد حذرها عمر بن الخطاب إذ أقبل على ابنته يحذرها مما هي فيه من مسايرتها لعائشة، وأفهمها أن ثمة فرقاً كبيراً بينها وبين عائشة -فهي تحب الرسول، والرسول يحبها (أين أنت من عائشة؟ وأين

(١) نساء النبي، بنت الشاطئ» ص ٧٩ - ٨٠.
(٢) انظر نساء أنزل الله فيهن قرآنا ص٤٣ والحديث أخرجه الشيخان.

أبوك من أبيها..). وحين علم أنها كانت تراجع الرسول اشتد عليها قائلا وزاجرا: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله، يا بنية لايغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله لها والله لقد علمت أن الرسول لايحبك ولولا أنا لطلقك). ولقد كانت حفصة معتدة بذاتها، مدلة بشخصيتها، لاترى في منزلة عائشة أو غيرها ما يلزمها بأن تتكلف ما ليس في طبعها، بل تركت نفسها على سجيتها.

ولعل إباءها هو الذى فرض عليها أن تدارى غيرتها من عائشة وتحاول أن تلتمس فى صحبة هذه الشابة المرحة، ومشاركتها فى معاركها الصغيرة ومؤامرتها الذكية، ما يشغلها عن هذا الهم المطوى.. ويرخى لها الرسول ما استطاع، ويشفع لها عنده أنوثة ضعيفة تستثير رحمته وبنوتهما لأعز صاحبين)[1].

أما زينب بنت جحش. فهى حفيدة عبدالمطلب، أمها أميمة وأخوها عبدالله بن جحش حامل أول لواء عقده الرسول لحرب المشركين، وصفتها كتب التاريخ بأنها كانت بيضاء وسمينة من أتم نساء قريش، وكانت معتزة بهذا الجمال، كما كانت معتزة بنسبها الرفيع.

ولقد اختار الرسول لها دوراً مهما فى إقامة دعائم الإسلام فى دنيا الناس، إذ اختيرت فتاة بنى هاشم لتكون عاملا جوهريا فى تحطيم الفوارق الموروثة فى الجماعة المسلمة. وكانت هذه الفوارق من العنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعى من الرسول تتخذ منه الجماعة المسلمة الأسوة الحسنة، ومن ثم فلقد اختار الرسول صلى الله عليه وسلم زينب زوجة لزيد بن حارثة، الذى تبناه الرسول ودعى باسم زيد بن محمد. ولم يكن زيد من أمنياتها فى يوم من الأيام. ولذلك فقد دب الخلاف بينهما.. وأخذت تترفع على زيد، وأصبحت الحياة بينهما لا تطاق حتى طلقها زيد فى نهاية الأمر.

وتنقضى عدة زينب، ثم يخطبها الرسول ويتزوجها، وكان زواجا بأمر السماء ــ قضت به مصلحة تشريعية عامة، وهى ألا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم، وكذلك مصلحة خاصة، وهى أن تأمن زينب بنت عمة الرسول الأيمة والضعة وتنال الشرف بأن تغدو من أمهات المؤمنين، ومن ثم أبطلت عادة التبنى «وما جعل أدعياءكم أبناءكم» «إدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله»، كما أن نزول الحجاب كان بسبب زينب رضى الله عنها، «عن عائشة قالت: يرحم الله زينب بنت جحش، لقد نالت فى هذه الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف، إن الله زوجها نبيه فى الدنيا ونطق به القرآن، وأن رسول الله قال لنا

(١) نساء النبى ص ١١٠ - ١١١.

ونحن حوله «أسرعكن بى لحوقـا أطولكن باعا، فبشرها رسول الله بسرعـة لحوقها به، وهى زوجته فى الجنة»[1].

وتبقى السيدة مـاريا القبطية رضى الله عنها.. تلك الفتاة الجـميلة التى أهداها المقوقس إلى رسول الله، وكانت جذابة الملامح جعدة الشعر. وعللت عائشة نفسها ــ جاهدة بأنه لا خطر من هذه الشابة الجميلة، فما كانت سوى جارية قبطية غريبة.

وعمت الفرحة القلوب حين ولدت مارية ابنا سماه الرسول إبراهيم، وفرح به فرحا شديداً وسعدت مارية بأن استطاعت أن تهب الرسول على الكبـر غلاما تقر به عينه، وراح الرسول يرقب ولده وهو ينمو أمامه رويدا رويدا.

حمله ذات يوم بيـن ذراعيه، ومـضى به إلى عائشة، ودعـاها فى تلطف وبشر لتـرى ما فى الصغيـر من ملامح أبيه، فأحـست عائشة كأن سهـما نفذ إلى قلبهـا، وكادت تبكى مما تجد، لكنها أمسكت عبرتها وقالت فى غيظ:

ــ ما أرى بينك وبينه شبها..

وأدرك الرسول على الفور مدى ما تكابده، فانصرف بولده وهو يرثى لعائشة.

وظلت النار ترعى تحت رماد من التجمل والتكلف والمداراة، حـتى كان اليوم الذى اجتمع فيه الرسول بمارية فى بيت حفصة، فاندلع الضرام من تحت الرماد متوهجا[2].

ولنمـضى إلى الموقف القـصـصى الذى كـشف لنا كل هذه الجـوانب النفـسيـة فى طبـائع زوجات النبى.. والذى توضحه لنا قصة التحريم التى نحن بصددها.

كان النبى فى بيت حفصة، فاستأذنتـه أن تذهب إلى بيت أبيها عمر ابن الخطاب، فأذن لها، وفى أثناء غيـبتـها جاءت مـاريا القبطيـة ومكثت مع النبى زمنا وهما فى بيت حـفصـة فلما حضرت حفصة رأت مارية فى بيتها، فـانتظرت حتى انصرفت مارية، وكان قلبها يشتعل ألما وغيرة، فلما انصرفت دخلت حفصة بيتها وقالت للرسول:

ــ لقد رأيت من كان عندك، والله لقد سيئتنى، وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك.

ثم استعبرت باكية.

ووقعت كلمتها من الرسـول موقعا أليما، فأقبل عليها يتـرضاها، وأدرك الرسول أن الغيرة قد تدفع حفصة إلى إفشاء السر وإذاعته، والتحدث به إلى غيرها من زوجاته، وذاك يدفعهن

(١) نساء أنزل الله فيهن قرآنا ص ١٢٨. والحديث أخرجه الشيخان والترمذى.
(٢) نساء النبى ص ٢٠٢.

إلى غيـرة تثير الحفـيظة فى النفوس، فأراد إرضاءها وهان عليـه أن يسر إليها أن مـارية حرام عليه، حتى تتناسى حفصة ما كان، وتعتبره كأن لم يكن.

ورضيت حـفصـة وسعـدت ليلتهـا بقرب الرسـول وعطفه، حتـى إذا أمضى عنهـا الغداة ولمحت عائشة قريبة منها، تحركت فيها الطبيعة الأنثوية ــ إذ تحركت الغيرة تأكل صدرها فلم تطق كتـمان السر، ولم تستطع أن تكتم عنهـا ما تطوى من سر خطيـر، فنبأت به صاحبـتها، التي انتـهزت الفرصـة لتنال من غريمـتها الأمـة القبطيـة ولم تقدر حـفصة وهي تـذيع السر لعائشة أنها بسبـيل إشعال نار فى بيت الرسول ﷺ ، فإن عائشة لم تهدأ حـتى جمعت نساء النبي فى مظاهرة ثائرة بمارية، مصرة على ألا يبقى لها فى مدينة الرسول ﷺ مكان.

واندفعت عائشة تستـثير ضرائرها، فمازالت بهن حتى انضـممن إليهـا وقد تناسين غيرتهن عنها وكانت كلمتهن:

ــ صبرنا على إيثار الرسول ﷺ لابنة أبي بكر، وما بقى إلا تلك الأمة القبطية فأى هوان!

ولجَّت عائشـة فى غيرتهـا والنساء يظاهرنها على زوجـهن الرسول ﷺ غيظا من ماريا التى حملت دونهن ببضـعة من رسول الله ﷺ. وترفق الرسول بهن ما اسـتطاع مقدرا بواعث هذا التظاهر، ولكنهن تمادين فى اللجاج إلى حد الشطط مستمرئات عطف الرسول ورفقه بهن.

وما كان صلى الله عليـه وسلم فارغ البال إذ ذاك لهذا العبث النسوى المسـرف ،ولاكان يستطيع أن يرضى لعائشة وحفـصة والباقيات أكثر مما فـعل فاعتزلهن جميعا فـى صرامة لم يألفنها، وأعلن فى حزم أنه منقطع عنهن منصرف عن مؤامرتهن الصغيرة إلى شواغله الكبار [1].

وذاع الخبـر، وعلم الناس أن النبى مطلق زوجـاته، وحزنت الزوجات، وأوشكـن أن يقعن فى الحفرة التى حفرنها لمارية. وكان انقطاع الرسول عنهن تأديـبا وردعا وتخفيفا لشدة الغيرة التى أخذتهن وأوى الرسـول إلى خزانة له، يرقى إليها على جذع من نـخل وليس بها فراش إلا حصيـر جاف خشن، وحسـبه هناك لقيـمات من شعيـر يقمن صلبه، ويجلس على عـتبة الخزانة غلامه رباح، والـرسول فى خلوته يتجه إلى تدابير أمر المسلمـين والمسلمون فى شغل شاغل لانقطاع الرسول .حتى لقد شاع أن النبى طلق حفصة لافشائها ما وعدت بكتمانه.

ويخرج عمر بن الخـطاب قلقا حزينا، ويقصد رسول الله صلى الله عليـه وسلم، ويستأذن غلامه، ويدخل الـغلام ثم يخرج ولا يجيب إلى أن رفع صـوته قائلا: «وهو يقصد حـفصة»

(١) انظر الظلال جـ ٦ ص ٣٦١٣، وتفسير ابن كثير جـ٧ ص ٥٧ ونساء النبى ص ٨٧، ١١١

والله لئن أمرنى بضرب عنقها لأضربن عنقها، وحين سمح له بالدخول أجال بصره فى الخزانة، ثم بكى: فقال له الرسول: ما يبكيك يا بن الخطاب؟

فأشار عمر إلى الحصير، وقد اثر فى جسده صلى الله عليه وسلم ثم قال:

ــ يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك، وملائكته، وجبريل، وميكائيل، وأنا، وأبوبكر، والمؤمنون معك.

فابتسم له الرسول وأخبره أنه لم يطلق النساء وإنما اعتزلهن شهرا.. ففرح عمر وخرج إلى الناس فى المسجد وأعلن الخبر ــ إن الرسول لم يطلق النساء فاستبشر الناس وسرت الطمأنينة إلى قلوبهم.

ولقد أدركت حفصة ــ وهى العابدة النقية ــ الخطأ الذى وقعت فيه وندمت على ما أقدمت عليه. ذلك أن شعورها بالخطأ فى حق الرسول كان قوياً، ومتواصلا بخلاف غيرها، فهى التى أذاعت السر ــ وأخلفت الوعد، وأنكرت ترضية الرسول لها،.. وجحدتها.. وثمة رواية أخرى فى سبب للنزول.. تدور حول إفشاء السر.. تقول الرواية:

عن عائشة قالت: كان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ــ ويمكث عندها.. فتواطأت أنا وحفصة، على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير «صمغ حلو كريه الرائحة»، إنى أجد منك ريح مغافر وجاء الرسول عائشة، فشمت أنفاسه وقالت: إنى أشم رائحة مغافير. أكلت مغافير؟

قال: لا: ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت، لا تخبرى أحدا.

إنها نوع من الغيرة ادخرتها عائشة للشابة القرشية الحسناء زينب بنت جحش، كما استثمرت إفشاء حفصة للسر للنيل من مارية القبطية.

.. إن المرأة فى المنهج الاسلامى هى الستر والوقاية، هى الحفظ والرعاية، تلتقى بزوجها فتكاشفه بسرها ويفضى إليها بحاله.. تساهم معه فى مسيرة الحياة، والرجل أيضا ستر للمرأة ووقاية لها يستر محاسنها، ومفاتنها ويقى جسدها من عيون الرجال ومن مرض القلوب.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن من يفشى أسرار الزوجية بين الناس سواء كان رجلا أو امرأة «هل تدرون ما مثل من فعل ذلك.. مثل شيطان وشيطانة لقى أحدهما صاحبه بالسكة فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه» أخرجه أحمد فى مسنده

إن المرأة العاقلة هى التى تحافظ على أسرار زوجها ولا تعلنها للآخرين، حرصا على مشاعر الزوج وكرامته، وصيانة للأسرة، وحماية للأهل والأولاد.

.. ولم يكن غريبا أن تكون المرأة بمعنى من المعانى الحسنة الطيبة التى يطلبها المؤمن ويتمناها فى الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [1].

(١) سورة البقرة آية ٢٠١.

المرأة.. و.. الحقد الذي يأكل القلوب

قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[1].

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام. وبدأ يعرض دعوته على قومه وأقترب الناس إليه. فآمن به من آمن وأنكر من أنكر. وظل الإسلام يمضى إلى القلوب حثيثا. وشرع الناس يدخلون فيه خفية، وكان النبى وأصحابه يتخفون فى صلاتهم فى أول الأمر. إذ وجدوا من قريش من يناصبونهم العداء.. ومن هؤلاء عمه أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب وكانت داره قريبة من دار الرسول ، وكان على خلاف أسرة عبد المطلب يشرب الخمر ويلعب الميسر. أما عمه أبو طالب فكان رسول الله أحب الخلق إليه «وكان يحنوعليه، ويحسن إليه، ويدافع عنه ويحامى. ويخالف قومه فى ذلك. مع أنه على دينهم إلا أن الله قد امتحن قلبه بحبه حباً طبيعيا.. وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركى قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه»[2].

ولقد طالب كفار قريش عمه أبا طالب أن ينهى ابن أخيه عن شتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم.. فبعث أبوطالب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فأتى به وقال له: يا ابن أخى:

---

(١) «سورة المسد – ١ .

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير جـ٣ص٤١

إن قومك قد جاءونى وقالوا كذا وكـذا، فابق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، فاكفف عن قومك ما يكرهون.. فقـال رسول الله لعمه «والله لو وضعوا الشمس فى يمـينى والقمر فى يسـارى ما تركت هذا الأمر حـتى يظهره الله أو أهلك دونه» فقال له عمه : امض على أمرك وافعل ما احببت فوالله لا أسلمك لشىء أبدا.

أما عمه أبو لهب فلقد كان من أشد الناس المعارضين للرسول ﷺ حيث خرج على إخوته وخالف قريشا، وكان معهم فى الصحيفة التى كتبوها لمقاطعة بنى هاشـم..

وكانت زوجتـه أم جميل أروى بنت حرب أخت أبى سـفيان تماثله سوءا وحقـدا وكراهية وكانت عوراء، قـد تركت العاهة فى نفسها عُقـدا على البشر، فصبت حـقدها على الرسول وعلى رسالة الإسلام، وما كفت عن السعى بين الناس بالنميمة، تشعل الحرب وتقطع حبال الود بينهم، وكانت سـعادتهم أن ترى الشقـاء والألم فى عيون الناس وخاضت بلسـانها فى سيرة الرسول.

«وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيـرانها حربا شعواء على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى الدعوة، لا هوادة فيـها ولا هدنة. وكان بيت أبى لهب قريبـا من بيت رسول الله فكان الأذى أشد. وقد روى أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه فى طريق النبى» [1].

عن ابن عبـاس قال: لما نزلت «وانذر عشيـرتك الأقربين» صعد النبى على الصـفا ونادى: يا بنى فهر، يا بنى عدى، وأخـذ ينادى بطون قريش حتى اجتمعوا فـجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو الخبر، فاجتمعت قريش وجاء عمه أبولهب، فقالوا: ما وراءك؟

قال صلى الـله عليه وسلم: أرأيتكم لو أخـبرتكم أن خيـلا بالوادى تريد أن تغيـر عليكم، أكنتم مصدقى؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا قط.

قال: «فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد».

فقال له: أبولهب: تبا لك يا محمد سائر اليوم لهذا جمعتنا؟».

ودعا أبولهب الناس أن يتفرقوا، فتفرقوا.

ومضى أبولهب إلى بيتـه، واستقبلتـه أم جميل مسـتفسرة عما حـدث، وكانت تتلهف إلى سماع مـا يريح قلبها الحـاقد، وإلى سماع شىء يسىء إلى مـحمد، ويناله بالسوء. وحـدثها أبولهب بما حدث، فراحت تسخر من الرسول ﷺ وقالت فى حقد واضح:

ـــ سوف أحمل الحطب، وأنثر الشوك أمام بيته، وفى طريقه وأينما ذهب.

(١) الظلال جـ ٦ص٤٠٠٠

ونزلت سورة المسد فى أبى لهب وزوجته العوراء، تبشرهما بالهلاك والخسران. وفضحت الآيات أم جميل وبينت أنهـا ستدخل معه النار، تلك التى كانت تسعى بيـن الناس بالنميمة والعدواة والبغضاء.

قال أبو السـعود: كـانت تحمل حزمـة من الشوك والحسك فتنثـرها بالليل فى طريق النبى لإيذائه.

وقال ابن عباس: كانت تمشى بالنميمة بين الناس لتفسد بينهم.

وبينت الآيات أنها ستطوق بحبل من ليف قد فتل فـتلا شديدا تعذب به يوم القيامة.. وهى التى كانت تفـاخر بقـلادتها المصنوعة من الجـوهر، وكانت تجـاهر بأنها ستنـفقهـا فى عداوة محمد والنيل منه[1].

وبلغ أم جميل ما نـزل فيها وفى زوجها، فاسـتشاطت غضبا وأكلها الحـقد أكلا وانطلقت يحملها جنان من الغـضب. وأتت رسول الله وهو جالس فى المسجـد عند الكعبة وفى يدها حجر وحين رأت أبابكر يتحدث مع النبى صلى الله عليه وسلم مشت نحوهما.

فقال أبو بكر: يا نبى الله، هذه أم جـميل قادمة نحونا، وأنها امرأة بذئيـة اللسان، فلو قمت والله لتؤذينك.

فقال رسول الله مطمئنا أبا بكر: إنها لن ترانى.

وأقدمت قائلة لأبى بكر: بلغنى أن صاحبك يهجونى فوالله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فمه.

ورد عليها أبو بكر: لا ورب الكعبة ما هجاك، وما ينطق بالشعر ولا يتفوه به.

قالت أم جميل: لقد أنشد فى شعراً، والثواقب إنه لشاعر، وإنى لشاعرة وسوف أهجوه

وأنشدت العوراء تقول:

مذموما عصينا، وأمره أبينا، ودينه قلينا

ثم انصرفت وغضبها يتبعها وحقدها يلازمها.

قال النبى صلى الله عليه وسلم: مازال ملك يسترنى حتى ولت.

ولقد ألبت الآخرين على محمـد صلى الله عليه وسلم ـ بل وصل بها الأمر إلى أن تذهب إلى أخيها أبى سـفيان تحمسه وتثـير ثائرته على محمد.. ذلك الذى هجا أخـتك الشريفة فى قبيلتها.. ويقول أبوسفيان لأخته وقد أخذته حمية الجاهلية.

(١) انظر صفوة التفاسير جـ ٣ ص٦١٨ ـ ٦١٩

ـ سأكفيك إياه.

وتفرح العوراء ـ فها هو أخوها أحد كبار القوم سيشفى قلبها من المرض الذى تغلغل فيه واستكن.. الحقد والكراهية..

وتظللها السعادة وهى ترى أخاها أبا سفيان يتقلد سيفه ويخرج للثأر لأخته التى نزل فيها قرآنا يكشف أمرها.. ويرجع أبو سفيان خائبا.. إذ حين وصل إلى الرسول يريده بسوء كان يرى ثعبانا فاغرا فمه يريد أن يناله بسوء فخاف أبوسفيان وعاد من حيث أتى وحمى الله نبيه.

تلك صورة ذميمة لامرأة تتحدى الدعوة فأصبحت مثلا مضروبا للسخرية والزراية والقلب المريض الذى سكن فيه الحقد وتغلغلت الكراهية.

إن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التى شاعت فى آياتها ـ وقد سجلت فى الكتاب الخالد، وسجلتها صفحات الوجود أيضا ـ تنطق بغضب الله وحربه لأبى لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله، والتباب والهلاك والسخرية والزراية جزاء الكائدين لدعوة الله فى الدنيا، والنار فى الآخرة جزاء وفاقا، والذل الذى يشير إليه الحبل فى الدنيا والآخرة جميعا) [1].

إن الحقد انفعال نفسانى يمتلك القلوب، ويثير صاحبه ويدفعه إلى الغضب، فيصبح كل شئ فى الطبيعة عدوا له، وتزول الرحمة من القلب وتغلى فيه مراجل العداوة وتلهب نار البغضاء ويظلم العقل، ويفقد الإنسان الشعور بالعدل.. وكانت أم جميل نموذجا له:

(١) الظلال جـ ٦ ص١

♦ الباب الثانى

المرأة .. والحياة

منزلة الأم فى الإسلام

أشــار القرآن الكــريم إلى الصلة العـميـقـة والحمـيـمة التى تربـط الرجل بالمرأة وهى صلة موصولة بالقلب والوجدان معاً.

قال تعالى: «ومن آياته أن خلق لكـم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليهـا وجعل بينكم مودة ورحمة».

وجاء التعبـير القرآنى «لتسكنوا» موحياً بهـذه العلاقة الجميلة ومؤكداً على الحاجـة النفسية والعضوية التى تتحقق فى إطار من الرحمـة والمودة. والمشاعر تجاه الأنثى أمر فطرى، كما هو تجاه الرجل، وعلينا أن نتـذكر يد الله التى خلقت من الأنفس أزواجـاً، وأودعت فى النفوس العواطف والمشاعر وجعلت من الصلة بين الاثنين سكناً وطمأنينة.

وهذا السكن تحققه الأسرة الهادئة، الواعية، والأم عماد هذه الأسرة، وحاضنة أبنائها.

والإسلام أشاد بفـضل الأم وأعلى من شأنها، وأنزلها منزلة عـالية وأكرمها وفـضلها، فهى ركن مهم فى بنـاء البيت، وتكوين الأسرة، وسـبب حيوى فـى إشاعة الاحـترام، والتوقـير، والسعادة النفسية. ومن ثم فلقد أولى الأم بالرعاية التى تتلاءم مع الدور الذى تقوم به. وجاء تكريمها متناميا مع اهتمام الإسلام بالمرأة ومنحـها من الحقوق مثلما منح الرجل دون تفرقة أو تعسف كالتعليم، والحرية، والعـمل، والإرث والتملك.. مع الالتزام بآداب التربية والسلوك الحميد.

والمرأة- الأم نموذجا.. تقوم بأعباء البيت وتربية الأبناء ومتابعتهم ومشاركة الرجل أعباء الحياة سواءً كانت عاملة أو متفرغة، ومثل هذا العمل يثْمر نوعًا من التآلف والود، ويقدم إلى المجتمع أبناءً يشبون على المحبة وقيم الأخلاق الحميدة.

ولقد أشاد الرسول بمكانتها وقدر دورها تقديراً عالياً، وأنبأنا نحن الأبناء أن جزاء المعاملة الطيبة للأم هو دخول الجنة.

قال صلى الله عليه وسلم (الجنة تحت أقدام الأمهات).

إن الأم.. وفق ما ورد فى القرآن والسنة- مقدمة فى حق الرعاية على الأب .

عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتى؟.

فقال: أمك

قال: ثم من؟

قال: أمك

قال: ثم من؟

قال: أمك

قال: ثم من؟

قال: أبوك.

إن القرآن الكريم رسم صورة مثلى للأم فى تضحياتها ومعاناتها لآلام الحمل والولادة والرضاعة والعناية الفائقة بالأطفال حتى يكبروا، وبتربيتهم- حين يشبون- على قيم الدين وحسن الأخلاق.

قال تعالى (ووصيْنا الإنسان بوالديه إحساناً، حملتْه أمه كُرهاً، ووضعته كرْها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً...).

وقال تعالى فى سورة لقمان (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمة وهناً على وهْن وفصاله فى عامين...).

والآيات توضح المشقة التى تصيب الأم وهى تحمل فى بطنها جنينها ثم تقوم بعد ذلك برعايته وتوصى الآية الأبناء بالأم أولاً.. والعمل على رعايتها وتحقيق مطالبها وإرضائها بكل السبل حتى ينالوا رضاها ويستحقوا رضوان ربِّهم.

وحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاساءة إلى الأم وإغفال ما يتوجب حيالها من طاعة ورعاية مادية ونفسيه، ومداومة الفعل الطيب والقول الحسن، والبعد عما يسيء إليها. فمهما قدم الأبناء للأم فلن يوازى أو يرتفع إلى ما قدمته لهم صغاراً وفتية ورجالاً.. لقد تعبت ليستريحوا...

قال صلى الله عليه وسلم (إن الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات...)

وقال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما، وقل لهما قولاً كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل ربِّ ارحمهما كما ربيانى صغيراً).

لقد أمر الإسلام ببر الوالدين، وأكد على فضلهما فى التربية والتنشئة وبين أن دور الأم فى منظومة الأسرة الإسلامية دور كبير لا يغفله إنسان ومن ثم اتجهت الاشارة إلى رعاية- البنت- التى ستصبح أما، وهو أمر ضرورى شجع عليه الدين، وأمر به. فحسن التربية للبنت، إنما هو توقع حسن للأسرة المسلمة، فهن اللائى سينشئن الأجيال على قيم الدين وصدق العمل، وإخلاص النية لله وللوطن وعلى إشاعة المحبة والرحمة.

إن بر الوالدين من الأعمال الفاضلة.. ولقد قرنه الرسول بالصلاة والجهاد فى سبيل الله.

عن عبدالله بن مسعود قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أىّ العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة لوقتها. قال: ثم أىّ؟ قال: برّ الوالدين؟ قال ثم أىّ: قال الجهاد فى سبيل الله.

إن البر يعنى العناية بهما- والانفاق عليهما، ومداومة الرعاية لهما. ولقد عبر حافظ إبراهيم عن مكانة الأم تعبيراً شعرياً عظيما، أبرز فيه ارتباط الأمة فى رقيها بالدور الذى تقوم به الأم.

الأم مدرسة إذا أعددتها.. أعددت شعباً طيب الأعراق

كما حذر شوقى.. من تجاهل حقوق المرأة فى التعليم وحسن التنشئة لأن الآثار تصبح وخيمة على الوطن كله.

وإذا النساء نشأن فى أمية..

رضع الرجال جهالة وخُمولا

والأم المسلمة التى نشأت فى بيئة دينية صالحة قادرة على تربية أبناء صالحين يؤدون أدوارهم فى الحياة بكفاءة عالية وأخلاق حسنة.

لقد ضربت الأم أمثلة رائعة فى التضحية والفداء، وغرست فى أبنائها حب الدين والقيم، وقدمت فى سبيل الوطن فرسانا وشهداء يتحدث عنهم التاريخ ويصبحون مثلاً للشجاعة والفروسية الحقة ويتحولون إلى رمز يتأساه الآخرون.

فالخنساء جمعت أبناءها الأربعة فى معركة القادسية وقالت لهم: (والله الذى لا إله غيره، إنكم بنو رجل واحد، كما أنتم بنو امرأة واحدة. ما خُنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيّرت نسبكم.. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية.. فإذا أصبحتم غداً.. فاغدوا إلى قتال عدوكم.. مستبصرين، ولله على أعدائكم مستنْصرين..).

وتقدم الأبناء إلى القتال وأبلو بلاءاً حسناً حتى استشهدوا جميعاً.

وحين بلغها الخبر قالت فى إيمان عميق (الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم).. إنها الأم العظيمة التى أحسنت حضانة وتربية هولاء الأبناء الأربعة الذين ضحوا بأنفسهم فى سبيل الله.

المرأة.. وطلب العلم

فرض الإسلام التعليم على المرأة كما فرضه على الرجل سواء بسواء، انطلاقاً من روح الإسلام الداعية إلى الوعى وترقية المدارك العقلية. وكلنا يعلم أن التاريخ العلمى والأدبى والدينى يحفل بعدد وفير من العالمات والأديبات، والشاعرات، والفقيهات.. اللائى برزن فى محيطهن وضربن مثلا عاليا يقتدى به.

قال صلى الله وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة).

ولا شك أن المرأة كسبت من جراء هذا التوجه الدينى حقوقاً صانت كيانها الفعلى والوجدانى معاً. وكان من النساء- على أيام رسول الله- من تتقن القراءة والكتابة، وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها قارئة وكاتبة وفقيهة فى أمور الدين.

قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم (خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء) ولقد برزت المرأة المسلمة فى مجالات الشعر، والرواية والفقه، والفنون التى منها الغناء والموسيقى. وحفلت كتب التراث بعدد غير قليل من اللائى نبغْن فى جوانب القول والمعرفة.

وكل ذلك يؤكد سمو الإسلام فى نظرته إلى المرأة والدعوة إلى تعليمها وتثقيفها. فالمساواة فى طلب العلم قائمة بين الرجل والمرأة. لقد حضٍ رسول الله على تعليم المرأة، وحث المجتمع على تحقيق ذلك وألا يقف الرجال حجر عثرة أمام هذا الهدف النبيل والذى يجعل من المرأة طاقة معرفية قادرة على بناء أسرة سليمة.

وإذا كـان قد وقع على المرأة ظلم اجتـماعى أو حـجْب علمى، فـهو بسـبب المواضعـات الاجتماعية والتقاليد الموروثة البالية البعيدة عن صحيح الدين.

والمرأة المسلمة كـسبت حقوقـا اجتماعـية وعلمية كـاملة.. فنشطت الحياة العـقلية ونهض التعليم.. ولـم يفرق الرسول فى هذه الحقوق بين المرأة الحرة أو الأمة.

قال صلى الله عليـه وسلم: (إيما رجل كانت عنده وليدة «أمـة فعلّهمـا، فأحسن تعليمـها، وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وزوجها فله أجران)

إن العمل على تعليم المرأة يستـمد فرضيته من الاعتمـاد على القرآن والسنة، وإننا لاينبغى أن نقصر تعليمها على القرآن وتفقه الدين كما يرى بعض المتعصبين.

ولقـد دعا الرسـول زوجـاته إلى أن يتعـلمن القراءة والكـتابة، كـما دعـا إلى المسـاواة بين الأبناء- ذكورا وإناثاً- فى الحقوق المادية، والنفسية والعقلية.

قال صلى الله عليـه وسلم «ساوا بين أولادكم فى العطية فلـوكنت مفضلا أحـدا لفضلت النسـاء».

ولقد وعى المسـلمون ذلك فوصلت المرأة فـى عصور الازدهار- كـما وصلت فى عـصرنا الحـاضر- إلى درجـة عـالية فى مـجـالات النشاط العـقلى فكان منهـا الأديبـة، والشاعـرة، والطبيبة، والقاضية، والحاكمة.. وغير ذلك من التخصصات العلمية والأدبية.

لقد كانت السيدة عائشة نموذجا كريما للمرأة المسلمة فى بواكير الدعوة ،فلقد كانت واعية بأمور دينها، حـافظة للأحاديث وراوية لها، عالمة بمناسبة الحـديث، وبمجريات الأحوال،.. مما جعلها تتخذ مكانة سامية فى سـجل الفقة وقضاياه.. لقد كانت.. رضى الله عنها.. من أعلم الناس فى وقتها، وأفقههم فى أمور الدين..

وصـفهـا عروة بن الزبيـر فقـال: ما رأيت أحـدا أعلم بالقرآن. ولا بفقـه ولا بشعـر، ولا بحديث من عائشة.

وكان معاوية يقول: لم أسمع خطيبا أبلغ ولا أفصح من عائشة.

.. إن المرأة المسلمة إذا توفرلها المجال الصحيح بـعيداً عن جمود الرؤية- نبغت وقدمت فى فروع العلوم والآداب انجازات هائلة.

إن الإسلام أكد الدعوة إلى التعليم. وكـانت أول آية نزلت على الرسول تدعو إلى القراءة باعتبارها مفتاحاً للهداية، والرقى معاً.

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

وقال فى نفس السورة «العلق» ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

إن الكتابة والقراءة هما جناح الإنسان إلى آفاق الوعى والإنسانية.

لقد كفل الإسلام للمرأة حقوقاً كاملة، متساوية فى ذلك مع الرجل، وذلك من أجل إقامة بنيان سليم تشيع فيه قيم العدل والمساواة.

والمرأة فى العصر الحديث أخذت من الحقوق مادعم مركزها، فخاضت جوانب متنوعة، ونهلت من العلوم والآداب ما أهلها لتصبح قادرة على القيام بدور إيجابى فى صياغة المجتمع. لقد برزت فى العلم والأدب، والسياسة والقضاء والسياحة، والتجارة، والتعليم، وخاضت بحار الحركة الاجتماعية وقدمت عطاءات كبرى.

إن الحركة النسائية- الآن- تدفع بالمرأة إلى الأمام وتفك عنها أغلالاً فرضتها عهود التخلف والجمود.

.. يقول الإمام محمد عبده فى مجال التأكيد على المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات «إن حقوق الرجل والمرأة متبادلة وأنهما أكفاء.. وهما متماثلان فى الحقوق والأعمال، كما أنهما متماثلان فى الحقوق والأعمال، كما أنهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل..»

وانطلاقاً من هذه المماثلة التى أقرها الإسلام حازت المرأة الولاية والرعاية فى بيت الزوج وفى تربية الأبناء

قال صلى الله عليه وسلم «المرأة راعية فى مال زوجها وهى مسئولة عن رعيتها..»

ومن هذا المعنى رأى البعض أن المرأة يجوزلها أن تتولى القضاء قياساً على توليها ولاية الحسبة.

ولقد ورد عن عمر بن الخطاب انه ولى امرأة تدعى «الشفاء» ولاية الحسبة على السوق.

كما أجازوا للمرأة أن تفتى تأسياً بأمهات المسلمين- كعائشة- بشرط تحقيق الشروط الواجبة كالتعليم، والتفقه فى الدين وحفظ القرآن والمعرفة بالأحكام وأسباب النزول.. وغيرها.

.. إن صلاحية المرأة للقضاء قيست بتوليها منصب الافتاء. وهى «سنة عملية مارستها نساء كثيرات» على عهد النبوة من أمهات المؤمنين وغيرهم .

فقاس هؤلاء الفقهاء ـ كالطبرى ـ قضاء المرأة على فتياها وحكموا بجوار توليها كل أنواع القضاء ـ انظر حقائق الاسلام ـ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

لقد اختار الاسلام رأى بعض النساء وارتكن اليه مثلما نجد فى سورة المجادلة وأكبر من رأيها فـأكد بذلك على أنها مخلوق له رأيه المعبر . بل لقد امتدح القرآن ملكة سبأ ، لانها كانت تحكم مستعينة بأهل الخبرة والرأى دون أن تنفرد برأيها ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ .(النمل ٣٢) .

المرأة.. والحياة

في ظل التوجه الإسلامي الحميد نحو تعليم المرأة وإقبالها على العلم تنهل منه، استطاعت أن تخوض دروب الحياة وفروع العلم- بل وتتولى أمور الحكم والقضاء..

يورد «محمد عطية الإبراشي» في كتابه «مكانة المرأة في الإسلام».. ان كتب التاريخ أشارت إلى ان المرأة المسلمة قد تولت القضاء في عهد الخليفة المقتدر العباسي، واطمأن الناس إلى عدالتها ومقدرتها القضائية.

كما خاضت المرأة مجالات قد يرى البعض أنها لا تلائم طبيعتها.. فلقد أظهرت المرأة المسلمة نجاحاً بالغاً في تخفيف آلام الجرحى في الحروب والقيام بتطبيبهم.. وهو ما تقوم به المرأة الآن في مجالات العلاج المختلفة وهو دور حميد وممتد نراه في عدد هائل من المراكز الطبية، حيث تشارك المرأة بجهد بالغ في هذا المجال..

وإذا كانت المرأة شاركت الرسول غزواته فقامت بسقاية القوم وإطعامهم وخدمتهم، ومداواة جرحاهم.. فإن الانتكاسة التي حلت بها وعزلتها، حول أحجبة من التخلف، كان وراءه تلك العصور المتخلفة، التي تخلى.. فيها الناس عن مدارسة الدين مدارسة واعية.. ولم يكن غريبا في هذا الوقت أن تتعلم المرأة فنون الفروسية من أجل حماية نفسها والدفاع عن حقها وأهلها في حياة حرة كريمة، ولعل سيرة «خولة بنت الأزور» ان تكون نموذجاً للفارسة الجسور حيث ألقت بنفسها في أتون المعركة من أجل فك أسر أخيها في موقعة أجنادين والتي كان خالد بن الوليد أمير الجيش وقائد الحرب.

.. ولم يقف الأمر بالمرأة عند هذه المجالات من دروب الحياة وأركانها فالإسلام لم يفرض عليها العزلة، أو المكوث فى البيت، أو البعد عن ارتياد أماكن العمل والعبادة والعلم.. بل فتح كل الافاق، فراحت تخوض جوانب الدنيا وتشارك فى صياغة الحياة صياغة سوية.. ولذلك نجد من النساء من مارسن أمور السياسية ومناجزة أجهزة الحكم وهو ما نسميه العمل بالسياسة.. تماما كما نراها الان..

ولقد اقتحمت المرأة ميادين شائكة تنذر بالفتنة الساسية مثلما حدث منها فى الخلاف بين على، ومعاوية، وبرزت أسماء لشخصيات نسائية على مدار التاريخ أثرت فى حركة الشعوب، فتقلدت مناصب عليا فى الدولة. ولا يغيب عنا أسماء مثل شجرة الدر، أو قطر الندى مثلا ، يقول الإبراشي، عن قطر الندى : «زوجة المعتصم بالله.. عالمة فذة، خبيرة بالشريعة الإسلامية. قامت بالوصاية على ابنها المقتدر قبل أن يبلغ سن الرشد، وأدارت الأحكام، وقضت بنفسها بين الناس، وأحاط بها كثيرون، وكثيرات من الشعراء والشواعر والأدباء والأديبات».

إن الحرية السياسية كفلها الاسلام وضمن الحقوق كاملة للرجل والمرأة على السواء.. وتؤكد تعاليمه السمحة على المساواة بين الناس جميعا فهم كأسنان المشط، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، كما ورد عن الرسول.

والحرية أخذت- فى الفكر الإسلامى- مساحة عريضة فهى هبة إلهية لايحق لأحد نزعها من انسان. لكن حركة التاريخ أفسدت هذه الفطرة فصنعت طبقات من الأسياد والعبيد.

إن الإسلام حرص على إشاعة الحرية بين الناس، وجعلها حقاً إنسانيا واجبا، وجفف أسباب الرق، وشجع على تحرير الأرقاء.. وكان الخطاب الاسلامى واحداً فى توجهه الى الحر، والعبد.. معا..

كما أعلى الإسلام من شأن «الجارية» وصان حقوقها ودعا إلى رعايتها وتربيتها، وتعليمها القراءة والكتابة وحفظ القرآن. وبرزت الجوارى فى مجالات العلوم والفنون والآداب.

لقد حفظ الإسلام للأمة حقها فى الفعل والجدل والحوار والمناقشة دون خوف، فالدين يحمى حقها، ويصون مطالبها.

وانظر إلى رسول الله وهو يوصى بهن ويدعو إلى الرحمة وحسن كفالتهن وتربيتهن.

«إن الله ملككم إياهم.. ولوشاء لملكهم إياكم».

لقد عجزت المدينة الحديثة أن تصل إلى المستوى الحقيقى الذى يرسخه الاسلام فى أسس

العلاقـة بين البشر عـامة، وبين الحاكم والمحكوم. خـاصة. وهو ما جعل المرأة/ الأمـة قادرة على المواجهة، والجدل لاستخلاص حقوقها دون خوف، أو مظنة عقاب.

وتأمل معي موقف الجارية من سيدها.

استعجل السيد «وكان اسمه ميمون» جاريته في طلب الطعام، فجاءت مسرعة بطعام حار، وعثرت في مشيتها وأسقطته على سيدها.

فقال: يا جارية أحرقتني

قالت: يا معلم الخير.. ارجع إلى ما قاله الله

قال: وماذا قال الله تعالى؟

قالت: والكاظمين الغيظ

قال: كظمت غيظي

قالت: والعافين عن الناس

قال: عفوت عنك

قالت: إن الله يقول «والله يحب المحسنين»

قال: أنت حرة لوجه الله.

إن هذه المحاورة تدل علـى البعد الانسـاني والديمقـراطي الذي يسمح بهـذه المحاورة بين الأمة وسيدها دون خوف أو عقاب.

.. ولنتـأمل أيضا هذا الموقف الجـميل بين عـمربن الخطـاب وامرأة فقـيرة ،وهو نمـوذج فذ للعلاقة المثلى بين الحاكم والمحكوم.

كان «عمر» يطوف في ليلة باردة ومعه عـامله «أسلم» فوجد امرأة وضعت قدراً على النار وحولها صغار يبكون

قال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء

قالت المرأة: وعليك.

قال: أأدنو؟

قالت: ادن بخير أودَع

قال: ما بالكم

قالت: قَّصر بنا الليل والبرد

قال: وما بال هؤلاء الصبية يصيحون؟

قالت: الجوع

قال: أى شىء فى القدر؟

قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا... الله بيننا وبين عمر.

قال: ومايدرى عمر بكم؟

قالت: يتولى أمرنا ويغفل عنا.

وانطلق عمر وخادمه وأتى بالدقيق والدهن وحمله على عاتقه حتى انتهى إلى المرأة. وأخرج من الدقيق شيئا وجعل يقول: ذُرِّى علىّ وأنا أحرك لك. وجعل ينفخ تحت القدر حتى أنضج الطعام، وقال للمرأة: أحضرى وعاءً. فأتته بقصعة فأفرغ بها الطعام ثم قال لها: أطعميهم وأنا أساعدك فلم يزل يفعل ذلك حتى شبعوا ثم ترك عندها البقية.

قالت له المرأة: أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين.

قال لها: إنك إذا جئت أمير المؤمنين

وجدتنى هناك

ولم يخرج رضى الله عنه حتى رأى الصِّبية يضحكون. ثم رتب للمرأة راتبا من أموال المسلمين.

تلك محاورة بين امرأة فقيرة وبين حاكم البلاد تكشف عن شجاعة المرأة فى إبداء رأيها فى الحاكم ومسئوليته. وهو ما يؤكد البعد السياسى فى العلاقة بين الناس، الذين وصفهم الرسول بأنهم متساوون كأسنان المشط ، والعدل الحقيقى هو المبدأ الذى يزهو به المسلم لأنه يحميه من الغدر والظلم وجوْر السادة والحكام..

والإسلام وهو يقرر هذا التوجه حمى الناس به، ومن ثم فهم قادرون على المواجهة ونيل الحقوق.

ولعلنا ندرك أن هذه الميزة انزوتْ وراء ترسيخ القيم الهابطة وسيادة أنماط من التوحش الإنسانى.

إن قيمة الديمقراطية تتبدى فى مثل هذه المواجهة التى تتكشف فيها الأمور، وتتجلى الحقائق دون خوف أو ترصد.

محاورة جميلة

اليُسر صفة جوهرية في الدين، انطلاقاً من أن النفس البشرية لديها طاقة محدودة على الفعل والممارسة، وأن الغلو آفة النفس المنحرفة، وذلك مرتبط بطبيعة الإنسان في ثنائيته الكبرى.. الجسد والروح.. والتغلب على وسوسة الشيطان وسيلة إلى إحداث التوازن.. ومن ثم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص في حديثه إلى المسلمين ألا يعسِّر عليهم أمور دينهم ودنياهم فهو العليم بأن تكليف النفس بمالا تطيقه مدعاة للإنصراف عنه. ولذلك فإنه -صلى الله عليه وسلم- مما يؤثر عن عائشة أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما».

إن التيسير على الناس أحب إلى رسول الله من التعْسير، وأنه حريص على أن يختار ذلك ويجنده، ويدعو إليه.. والتيسير هنا مرتبط بالقيم الأخلاقية وهو بعيد تمامًا عن التراخي.. ذلك أن التيسير هو الذى لا يتجاوز فيه المسلم أحكام الله وحدوده.. وإلا كان نوعاً من الاستخفاف بالدين، والرسول حرص كل الحرص على أن ينصح أصحابه كلما ذهبوا إلى أرض جديدة أن يكون التيسير على الناس صفة أساسية في معاملتهم للناس.

ولعل الحوار يثبت ما قالته عائشة من أنه صلى الله عليه وسلم كان يؤثر التيسير على التعسير ويستمع إلى المرأة ويحاورها . جاءت زوجة صفوان - كما يروى أبو سعيد رضى الله عنه إلى رسول الله، لتشكو زوجها صفوان.. وكانت غضبى.

قالت: يا رسول الله.. زوجي صفوان يضربني إذا صليت.. ويفْطرني إذا صمت، ولا يصلي صلاة الفجر حتى تطلع الشمس.

كان صفوان -زوجها- حاضراً مع رسول الله، وكان من عادة الرسول أن يستمع إلى أطراف الشكوى.. وكان أصحابه حين يحاورونه صادقين فيما يقولون، لا يلجأون إلى المناورة أو المكابرة.

والتفت النبي إلى صفوان مستفسراً منه عن شكاة زوجته قال صفوان: أما قولها يضربني إذا صليت، فإنها تقرأ في الصلاة بسورتين وقد نهيتها وما أطاعت.

قال صلى الله عليه وسلم: لو كانت سورة واحدة لكفتْ.

ومضى صفوان يقول: وأما قولها يفْطرني إذا صمت فإنها تنطلق تصوم، وأنا رجل شاب لا أصبر.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً على ذلك: لا تصوم امرأة تطوّعا إلا بإذن زوجها.

كان مجلس الصحابة مع النبي يستمع إلى هذه المحاورة الجميلة، وهذا الاعتراف الصادق، كما كانت الزوجة تقف متابعة لزوجها وهو يحادث الرسول.

قال صفوان: أما قولها أني لا أصلي حتى تطلع الشمس، فإنَّا أهل اهل بيت قد عُرف لنا ذلك واعتدناه.. فلا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس قال صلى الله عليه وسلم: يا صفوان إذا استيقظت فصلِّ.

.. تلك كانت المحاورة بين طرفين هما زوج وزوجة.. استمع لهما رسول الله.. وعرف كيف يُرْضي الطرفين ويُرسي مبدأ عظيما هو التيسير على الناس.. إذ أمر المرأة -المتشددة- بالتخفيف في الصلاة.. وبألا تصوم صوم التطوع إلا بإذن زوجها ، وأباح لزوجها - ولكل من يغلبه النوم- أن يصلي بعد طلوع الشمس..

لقد أزال التيسير أي حرج يشعر به المسلم أو المسلمة. كما أبانت المحاورة عن قدرة المرأة في الدفاع عن نفسها، وحرصها على قول الصدق دون أن تجنح في القول أو تسيء إلى أحد.

لقد تربت هذه المرأة على القيم التي أرساها الإسلام ومنها احترام المرأة في ذاتها وآرائها.

تكريم المرأة

وهب الله سبحانه النساء كما وهب الرجال من المواهب والقدرات ما يمكن كليهما من أداء الدور المطلوب منهما من تحمل المسئولية، وإقامة حياة طاهرة نقية، وتنشئة أجيال تجمع بين الدين والعلم فى محور يساهم فى تقدم الأمة وارتقائها وفق منظور لا يفرط فى القيم أو الأحكام الشرعية، بحيث يبدو الحد الأوسط منهاجاً قويما للفعل والسلوك.

والقرآن الكريم لم يفضل نوعاً على آخر إلا بمقدار ما يقوم به فى مجال الدين والأخلاق واصطفى الله من الرجال، كما اصطفى من النساء: قال تعالى: «وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين».

ولقد جاء الإسلام فأزال الظلم الذى كان واقعاً على المرأة.. فجعل منها كياناً كاملاً، فرفع قدرها وأعلا شأنها، ومنحها حقوقاً كانت غائبة عنها فيما قبل الإسلام.

فلا يخفى علينا أن المرأة كانت مبغوضة من الناس، وكانت النظرة إليها تتسم بالدونية، والعرب اعتبروا وجود الأنثى بينهم سببا فى الكراهية والعنت الشديد، وأصبح مجرد التبشير بالأنثى مثيراً نفسيا لإثارة البغض، والشعور بالعار، حتى أنه يبحث عما يواريه عن أعين الآخرين، ويظل ضيق الصدر بالأنثى، ويعيش صراعا نفسيا بين وأدها أو إبقائها حية يحمل عارها.. ولقد صور القرآن الكريم هذه الصورة الاجتماعية والنفسية تصويراً فى غاية الجمال والتأثير معاً حيث قال تعالى: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم،

يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون».

ولقد كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ النموذج الكامل فى الاهتمام بالمرأة ورعايتها وصيانة حقوقها، وإزالة العنت عنها، وتكريمها بما يليق بها.

ولقد ورد عن الرسول أنه كان يصلى وهو حامل أمامة بنت أبى العاص بن الربيع حفيدته من ابنته زينب، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها.

وما أعظم هذا التكريم، فالمسلمون يرون الطفلة على عاتق الرسول فى صلاته، والصلاة كما نعمل أشرف صور العبودية لله.. لقد صاحبت الطفلة الرسول فى هذه العبودية.. أليس ذلك تكريماً للأنثى.. أليس ذلك ــ أيضا ــ نوعاً من التقرب إلى الله.. ولعلنا ندرك أن فعل الممارسة أبقى تأثيراً من القول المرسل.. ومن ثم فإن صورة الرسول وهو يحمل «أمامة» ستظل عالقة بالأذهان، كأقوى ما تكون العظة، وكأعظم ما يكون الدرس النبوى التربوى النبيل.

وعلينا أن نزيل بعضاً من الصور الكريهة التي لا تليق بمكانة المرأة ولا تتفق مع موقف الإسلام كما ورد فى القرآن والسنة، فقد ورد أن البعض قال فى حضرة عائشة رضى الله عنها بما فى معناه أن المرأة تفسد صلاة الرجل إذا مرت أمامه أو اعترضت اتجاه القبلة.. ولقد أشارت رضى الله عنها إلى أن رسول الله كان يصلى وعائشة بينه وبين القبلة.. تقول رضى الله عنها فى حديث يؤكد هذا المعنى «كان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يصلى وأنا راقدة معترضة على فراشه، فإذا أراد أن يصلى الوتر أيقظنى فأوترت معه».

لقد كانت الحكمة واضحة جلية من فعل رسول الله، فلقد حمل «أمامة» علي عاتقه فى الصلاة دفعا لما كانت العرب تنظر به الى الأنثى فى كراهية، وكذلك البغض فى حملها وتدليلها.. فقدم درساً حول كرامة الأنثى، وطهارتها، وعلو منزلتها ووسيلة تربيتها على الكرامة والاعتداد الذات.

ستر الجسد

صان الإسلام المرأة، وحفظ لها كيانها وشرع من القوانين ما يحمي الجسد من الامتهان، وصيانته من الابتذال، ودرء الكيان المادى كله من تلك العيون المتربصة، والمتلصصة، وابقائها بعيداً عن سيئى الخلق الذين تقودهم رغباتهم إلى أعمال مشينة تتراوح ما بين التحرش الجنسي والاغتصاب والقتل.

لقد دعا الإسلام المرأة إلى العفاف، وغض البصر، والبعد عن العورات وحفظ الفرج، كما أمر الرجل أن يكف بصره عن النظر إلى الأجنبيات فإن النظرة «تزرع فى القلب الشهوة».

قال تعالى: «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منا وليضربن بخمرهن على جيوبهن.. إلخ».

قال البيضاوى فى تفسير الآية: «إن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة والشهادة».

ولقد كانت المرأة فى الجاهلية تمر بين الرجال مكشوفة الصدر، بادية النحر حاسرة الذراعين، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغرى الرجال.

ومن ثم عالج الإسلام هذا النمط المبتذل من السلوك فنزلت آيات النهى عن التبرج والمغالاة فى الزينة وطالبت المرأة بالعفة وحفظ الكرامة البشرية.

ذلك إن الإسلام يرى أن المرأة ليست سقط متاع، أو أداة للمتعة وإنما هى أساس الأسرة، وصانعة الأجيال، وهى مكرمة على أية شاكلة كانت، أما أو أختا، أو ابنة.. إن صيانة المرأة من ابتذال الجسد أحد أهم أسباب التكريم الإلهى لها.

وإذا كان الإنجليز قد احترموا المرأة وصانوها من التحرش الجنسى بأن خصصوا لها عربة خاصة بها فى عربات المترو.. فإن عملاً جميلاً شبيها بهذا المسلك قد تم لدينا فى مصر.. بعد زمن طال.. أعاد للمرأة احترامها، وصان جسدها من التعرى والابتذال حتى ولو جاء عن طريق الدرس التعليمى.

فمعروف أنه فى كليات الفنون مقرر فنى لرسم الجسد العارى، ومنه جسد المرأة حيث يقف الطلبة فى سن المراهقة، يشاهدون جسد المرأة بتفصيلاته الدقيقة الظاهر منها والخفى، ويقومون بنقله فى أوراقهم.. وظل الأمر سائداً حتى ألغى المسئولون مادة العرى التام، وكشف جسد المرأة كنموذج للتصوير.. واعتبر البعض ممن يرفعون شعارات التقدم والحداثة والعلمانية أن هذا الإلغاء تكريس للرجعية وانتصار لها، وانتكاسة حقيقية إلى ظلامية العصور القديمة.. إن مجرد ستر الجسد الأنثوى فى نظرهم ردة إلى الجاهلية!! وطالبوا بعودة الموديل العارية لتستلقى أمام طلبة الفنون مرة أخرى.. وإننى أتساءل كما تساءل البعض من الكتاب. هل يقبلون أن تكون الموديل من أهلهم وأقرب الناس إليهم!!

وإذا امتحنت السؤال من حيث تحققه، لوجدت أنهم يرفضون تماما أن تصبح الموديل واحدة منهم.. إنهم خبثاء، يقعون دائماً فى تناقض صارخ بين القول والفعل.. فهم يدعون إلى حرية المرأة وصيانة حقوقها، ويدعون أيضا إلى امتهانها وابتذالها حين تتعرى فتفقد كيانها وذاتها.. وحرية الفن، وضرورته أيضاً.. لا تبيح أن تخلع المرأة ملابسها كاملة أمام الطلبة يرسمونها بشهواتهم قبل أدواتهم.

إن من يفقد حقه فى الستر، يفقد حقه فى الكرامة.. ولهذا شرع الإسلام للمرأة ما صانها وحفظ لها كرامتها.

لندن.. وعربة الحريم

كان الخبر مثيراً للعجب وأنا أطالعه في صحيفة الأهرام.. ورحت أقلب الخبر وأفتش فيه.. لعل شيئاً ما يكمن وراءه فيعطيه بعداً تأويليا، أو ربما يكون ثمة خطأ في التعبير أو كتابة الخبر! وقرأته مرة وثانية، ودرت بعيني في الصحيفة غير مصدق أن يحدث ذلك! وتوقعت تعليقات ساخرة أو حادة حوله.. ولم يحدث.. ولف الخبر صمت ثقيل.. وبات الأمر كما قلت.. مثيراً للعجب.. الخبر نفسه، ورد الفعل إزاءه.

لقد أوردت الاهرام الخبر الطريف ــ من خلال مراسلها فى لندن وهو يفيد بأن القائمين على عمل مترو الأنفاق قد اجتمعوا وقرروا بصفة حاسمة لا رجعة فيها أن تخصص فى كل قطار من قطارات المترو ــ وعبر شبكاته العديدة ــ عربة للنساء ينفردن بها، ويلذن ببهوها، دون أن يشاركهن ــ على الإطلاق ــ فيها الرجال والفتيان والصبية الكبار.

وتلهفت علي معرفة السبب، فلربما يكون وراءه جريمة ما، أو اتجاه تحكمه رؤية اجتماعية أو سياسية.. لكننى وجدت السبب أخلاقيا فى المقام الأول، ذلك أن المسئولين عن هذا القطاع المهم قد لاحظوا عبر الرؤية البصرية، والشكاوى، والتذمر البادى من النساء أن الرجال يضايقون النساء ويتحرشون بهن.. إذن خصصت عربة للنساء كمحاولة للحد من التحرش الجنسى الزائد والذى اتخذ شكلاً يقتضى مواجهته.

النساء فى انجلترا يتعرضن للتحرش فى العربات المختلفة.. والنساء فى إنجلترا طالبن بتخصيص عربة لهن.. والقائمون على شئون النقل بادروا بتحقيق الرغبة.

ومر الخبر الغريب دون تعليق.. لم اقرأ لأحد رأيا حوله.. وأتساءل أين دعاه حقوق الإنسان، وأنصار المرأة الذين يعملون على رفع الظلم عنها، وإزالة القمع الذكوري الذى يمارسه الرجال عليها!! إذ كيف يمر موقف كهذا دون أن ينبروا ويسطروا مقالاتهم للدفاع عن حقوق المرأة.. وتأملت هذا الصمت.. ورحت أتساءل هل لأن مضمون الخبر حدث فى لندن اكتفوا بالصمت ساترين له، مبتعدين عن أية إثارة حوله.. وهم الذين يملأون الدينا صخبا وضجيجا، ويعقدون المؤتمرات، ويتصلون بمراكز الحقوق المشبوهة لو حدث مثل ذلك في مصر ويرفعون شعارات الحرية، والأنثوية، والمساواة، ورفع القمع وعلمانية الرؤية.

وإذا كان دعاة التقدم، وأصحاب نظرية إزاحة الدين عن مجريات الحياة، والسير وفق منهج الغرب ـــ قد صمتوا.. فلأن الأمر كله غربى، وهم محبون له.. وفى المقابل فهم لا يكتمون عداوتهم للإسلام.

وعلينا أن نقف على جوهر الخبر الذى ينبىء عن أن التجربة الغربية على امتداد الزمن فى موقفها من المرأة والدين، قد كشفت عن تعثر هذه المجتمعات فى صيانة المرأة وإعلاء كرامتها، ذلك ان قيم الدين السماوى تحرص علي كرامة المرأة وتقديرها وصيانتها من الابتذال.. لكنها وفق رؤية الآخر ومشواره الطويل فى الاتجاه المعاكس، قد فقدت كثيراً من حيائها وكيانها وخصوصية جسدها، وأضحت نهبا للعيون والأيدى.. وأخيراً فقد عادت لندن إلى تقليد قديم وانشأت عربة «للحريم».

فماذا يقول الذين يرتمون فى أحضان الآخر الغربى!!

الإعلان.. والمرأة

دخل المنتجون إلى حلبة الإعلان، وتفننوا فى تقديمه بشكل يثير الحواس، ويقبض على العيون فلا تقوى على الانفلات من تأثير الصورة، وأضحى الاعلان ملمحاً رئيسياً للقنوات المرئية حتى زاحم كل شيء.

والمرأة ـ فى جسدها الجميل ـ هى صرعة الاعلان ولعبته، فما من إعلان يخلو من أنثى جميلة مختارة بمقاييس «تجارية» تتعامل مع العين، فالجسد دقيق ولين، والوجه جميل، والعين جريئة، والشعر نائم أو معربد، والحركة، أو اللفتة، أو النظرة.. تكشف المخبوء، والملبس يكاد لا يرى.

ويرى المتخصصون فى هذا المجال أن المرأة تحولت الى سلعة تماما مثل السلع التى تقوم بالاعلان عنها. لكنها سلعة مالت الى الابتذال واتسمت بالخروج على الأعراف، دون مراعاة لاعتبارات تتصل بالقيمة، والذاتية، والحرص على كرامة الجسد.

وفى ظل تسييد المقولات التى تتحدث عن المساواة والحرية، راحت الاغراءات تفرض نفسها، وسهلت للنمط الغربى أن يسود فى القنوات العربية حتى باتت صورة الجسد الأنثوى كأنهافى خصام مزمن مع العفة وجمال الانسانية، ووقعت المرأة فى حبائل الإغواء فراحت تلهث من أجل أن تجد لها مكانا تحقق به ما تحب!

واذا كان الاعلان يعتمد ـ لترويج المنتج ـ على مخاطبة الغرائز فان الترويج يستغل ما فى الجسد من امكانيات لإظهار ما فى المنتج من جمال وفائدة وإثارة!

والاعلان عن المأكولات والمشروبات، والمنتجعات وغيرها قائم على استغلال المرأة استغلالاً مبالغاً فيه ويسيء اليها وذلك حين يعتبرها ـ فى تجلياتها المختلفة ـ سلعة جميلة ومغرية تساعد فى ترويج المنتج حتى تساوى الاغراء المادى بين المرأة والسلعة. وفى الحقيقة ـ كما أرى ـ فإن عرى المرأة وخلاعتها، وتجرؤها الشديد ـ وفق السيناريو المعد ـ فيه امتهان لها، كما أنها تتحول الى نموذج يمكن أن يحتذى، وبالإلحاح المستمر يتحول الاعلان الى ذريعة نفسية، فتسلك الفتيات نفس المسلك فى الحياة اليومية حين يعجزن عن الولوج الى عالمه المبهر، فيؤدى ذلك الى اشاعة الخلل فى القيمة والسلوك.. وهذا هو الجانب الخطير الذى ينتج عن سوء استغلال الجسد فى الاعلانات.

إن استغلال جسد الأنثى فى جمالياته المتنوعة جاء تقليدا للفضائيات الغربية، بل إن الصحف والمجلات استخدمت المرأة فى مجال الاعلان فى أوضاع تخدش الحياء وتوجب العقوبة. ولقد وصل الغلو فى استغلال درجات الصوت الى نوع من التهدج يقترب من الفحش. ولم تخجل بعض القنوات وهى تبث اعلانا عن «الفياجرا» أن تحول صوت المرأة الى نوع من الفحيح!!

إن استغلال الجسد فى الاعلان له سطوته، كما أن التفنن فى إبراز المفاتن يتنامى مع درجات العرى وغُنج الصوت، حتى تصور المشاهد أن المرأة تحولت الى رمز للابتذال.

إن الاستسلام للغزو الإعلامى والإعلانى معاً يساعد على تآكل الجسد وتجويفه ومن ثم تهدمه وانهياره.. ومواجهة الخطر تقتضى ترصده وبحث أسبابه والوقوف أمام استشرائه واختيار ما يتلاءم مع القيمة التى لا تتعارض مع ثوابت الأمة.

الشاعر.. والمرأة

ملأ الدنيا وشغل الناس

تلك هي طبيعة الشاعر الكبير، الذي يصور في شعره تجربة الوجود، ويتسامى بفنه فوق الهامات، ويقول الجميل من الشعر ويترك للناس أن يختلفوا حوله.

وكان الشاعر نزار قباني أحد هؤلاء الكبار الذين يتركون بصماتهم حيثما حلوا في تواجد حميم تبنيه الكلمة الشاعرة، ويوقعه النغم الصافي، ويثريه اقتحامه لموضوعات تقتضي الجسارة، وتثير عليه نوائب النفوس.

سكن القلب وبقي الشعر.

بقي شعره في المرأة، هذا الشعر المقتحم الذى انتشت له الصبايا وفرحت به ـ سرا ـ النساء.. وأعلن جهرا.. رفضهن للصورة التي صور بها الشاعر المرأة.. وهل هذا التصوير الحسي المفرط في التجسيم ينبيء عن عشق حسي للمرأة، أو أنه يستكنه الجسد ولوجا إلى المعنى.. بدءا من النهد ومرورا بطراوة القد، وغجرية الشعر، واللذة الجسور الناضحة من مسام الجسد اللين المتفتق!!

ويكتب الشعر شهادته حين يفارق الحس عالياً به إلى الدلالة، واشيا بالمعنى، قابضا على الرمز، ناسجا من الخاص والعام وحدة واحدة، مازجا بين الحسي والمعنوي بين المرأة والوطن في كيان متوحد له صيرورة واحدة.. ونبوءة واشية..

«إنى أحبّك

يا التى اختزنت بعينيها بحيرات الجنوب

ظلّى معى..

حتى يظل البحر محتفظا بزرقته

ويبقى الخوخ محتفظا بنكهته

ويبقى وجه فاطمة

يحلق كالحمامة تحت أضواء الغروب..إلخ»

ومشى التصوير بمفرداته الأنثوية ليلون قصائد السياسة، ويدخل المفردة السياسية المكانية/ فى قلب أتون العواطف المشبوبة، ليخلط بين المفردتين فى صياغة تستحيل على الانشطار، وتعجز عن فصم عرى الالتحام .

فى كتابه (نزار قبانى.. بركان الحب والغضب) الصادر عن سلسلة «كتاب الجمهورية» يتوقف الكاتب محمد رضوان أمام محور المرأة فى شعر نزار قبانى.. فالمرأة عنده قارة تستدعى الاكتشاف والبعث «كل امرأة كانت كتابا مكتوباً بلغة جديدة وأسلوب جديد، وكان علىّ أن اكتشف كل القارات واقرأ كل الكتب»، وهو ما جعله قادراً على معالجة قضيته بشكل موضوعى فى سياقه الشعرى التخيلى ولعل ذلك كان وراء الجدل الذى ثار حول شعره فى المرأة.

ومع تنوع تجربته وعمقها التى جعلته يقول فى شعره:

فصلت من جلد النساء عباءة

وبنيت أهراما من الحلمات

الا انه فى الحقيقة - رغم صخب النساء حوله وحلاوتهن التى تفيض عليه - كان يشعر بالوحدة، وبالزهد فى الجنس الذى تقدمه المرأة ومشهدها الحسى الذى يضمره.

مللت من مراكبى.. مللت من بحارى

فحين ألف امرأة.. ينمن فى جوارى

أحس أن لا أحد.. ينام فى جوارى

وكان «نزار» يرى أن المجتمع العربى يخاف من جسد المرأة.. وهو ما جعل منها أزمة متواصلة فى هذه المجتمعات التى حرمت الطمأنينة تجاه المرأة فحجبتها ووضعتها فى براويز خشبية.

ولقد صور الشاعر المرأة فى جرأتها مع الرجل، وإبداء رغبتها فى المصاحبة والتعبير عن عواطفها وهواجسها، وما ينتابها من رغبات مختلطة.. وجسد اقتحامها وتحررها وترصدها للرجل.

فى قصيدة «مع جريدة» يصور الشاعر موقفا سرديا بين رجل وامرأة . كان الرجل يضع قطعة السكر فى فنجانه، شاهدته فاقتحمته وقالت:

ذوب فى الفنجان قطعتين
ذوبنى ذوب قطعتين
وبعد لحظتين ودون أن يرانى
ويعرف الشوق الذى اعترانى
تناول المعطف من أمامى
وغاب فى الزحام.. مخلفا وراءه الجريدة

فى قصيدته «تريدين» رسم الشاعر «بورتريه» للمرأة فى حالاتها المختلفة، أهوائها، وجموحها، وعقلها، وعطرها، وذهبها، وحكيها، فهى مثل كل النساء تعشق المال.. لقد تصور أن التى أحبها مغايرة، فوجدها، تحمل الجين نفسه.

تريدين مثل جميع النساء
كنوز سليمان
مثل جميع النساء
وأحواض عطر
وأمشاط عاج

ووضع يده على الشهوات التى لا تنتهى، وكأنها ــ المرأة ــ تريد أن تضع فى كفيها خيرات الدنيا، وتطلب من محبها قدرة الساحر ووحى الأنبياء

تريدين من شنغهاى الحرير
ومن أصفهان جلود الفراء
ولست نبيا من الأنبياء

إنها المرأة التى لخصت فى شوقها شوق النساء نحو الترف، والبهاء والتغنى بالجمال،

والدوران حولها دون سؤال أو توقع الجواب
تريدين مثل جميع النساء
مراوح ريش..
وكحلا وعطرا..
تريدين عبدا شديد الغباء
ولم يكن غريبا أن يدين نزار قبانى المجتمعات التى تعتبر الأنوثة عارا.
المجتمعات (التى تصبح فيها جغرافية النهد أهم من جغرافية الأرض)
وشرقكم يا سيدى العزيز
يبايع الرجال أنبياء
ويطمر النساء فى التراب

المرأة.. الحلم

فى قصيدة طويلة بعنوان «امرأة من ألف عام» من ديوان «قصائد للحب» للشاعر فاروق جويدة، تتبدى المرأة الحلم كما يتدعها الشاعر.

امرأة استقطرت مزايا النساء، واكتنزت مباهجها فى قطرة مترعة بالحب والسمو والجلال، فهى... الفراشة فى جمالها ووداعتها، والموج المجنون فى حنوه على الشاطىء، والصوت البلبلى.. واجتماع الفصول الأربعة، حنين الطير، والصدر الرحيب، وسكرة الأمواج، وارتعاشة المطر، وعربدة الزلازل.. الخ.

ويمضى الشاعر فى رصد المفردات التى تصنع كونا موازيا للمرأة/ الحلم.. ويستدعى رمز الأنوثة فى جمالها ودهائها، وحبها، وحكائياتها - يستدعى شهرزاد - كما يستدعى رمز المغامرة والكشف - السندباد.

وهذه المفردات والرموز تصنع عالما شعريا متخيلا - لوطن مثالى - لا تمتزج فيه المرأة الحلم - بالوطن الحلم.. هذا الامتزاج الذى يصنع رؤية الشاعر الشعرية لعالم جديد، متجدد.. تتقاطر فيه الازمات وتنصهر.

يقول الشاعر فى قصيدته:

من ألف عام

عشت ارسم فى خيالى

صورة امرأة يخبئها القدر
كانت تطوف مع الليالى كلما
سقطت طيور العمر
واندثرت كأوراق الشجر
تبدو بلون الفجر أحيانا
..وحين تغيب يختنق القمر

لقد أصبحت المرأة محورا للكون، وتصبح أشواقها تجليات تفيض على مفرداته الطبيعية، وصوره الكونية.

وفى هذه القصيدة وغيرها استقرأ الدلالة وهو يقيم جدلاً بين المرأة والوطن، الذى يحتوى فى الرمز - الكون كله - وهو ما يعنى أن الشاعر يحلم بوطن مواز تتحقق فيه الامنيات والاحلام - ولعلنا ندرك أن القاموس الشعرى عند فاروق جويدة يرتبط بمفردات الوجود الكونية، حيث يتجلى، البهاء والحب، والجلال - وهو ما يرتقى بالنفس الى مصاف الاطهار الاصفياء، وهو حلم مثالى.

كأحلام المتصوفة، وهى رؤية مستولدة من النظرة الكلية لقصائد الحب.

فى ختام قصيدته السابقة يستخلص الرؤية فيقول:

من ألف عام
عشت ارسم صورة امرأة
أعيد بها الزمن
ويكون وجه حبيبتى
هو ما تبقى من زمان الحلم
فى هذا الوطن

لقد استطاع الشاعر أن يعبر عن رؤيته بوضوح وبشاعرية فائقة سواء فى وطنياته، أو شعر الحب - «المرأة» - ويذكرنى ذلك بما أورده الدكتور جابر عصفور فى كتابه «ذاكرة الشعر» وهو يتحدث عن ابى القاسم الشابى فيقول. إن الخطابة الحماسية التى انطوت عليها ابيات الشابى فى «إرادة الحياة» هى الجانب الآخر من العاطفة المتقدة المسيطرة على «صلوات فى هيكل الحب» ومن ثم فإن الرؤية المثالية لإرادة الشعب هى رؤية العاشق.. وتكتسب الحبيبة بعدا صوفيا يرتفع «به الوجود الى افق الرمز».

الأدب والجسد

بدأت الكتابة «الأنثوية» تتجه في الآونة الأخيرة «عقد التسعينيات» اتجاهاً جريئا يتعرض لمفردات لها طابع ديني واجتماعي وأسري.. ولاح التجاوز واضحا لما هو ثابت من القيم، وبات الهاجس الجنسي شاغلاً مساحة عميقة في الذهن والنص معاً، واعتبرت الكاتبة المبدعة أن التمرد على ما هو مستقر من المواصفات ذات الطابع «الخلقي» لونا من الحداثة المفارقة للقيم، ومن ثم فإن الإغراق في المشهدية الحسية يصبح هدفاً خالصاً مما يقترب بالنص من مرحلة الإثارة ذات الطابع الشبقي، وهو ما يفقد النص جماله الأدبي وينجو به نحو حسية اللذة.. ولا يتحقق ما يسمى لذة النص.. لأن بعض النصوص أصبحت تقترب من مشاهد الصور التي لا تهدف إلا إلى إثارة الغرائز، ودغدغة العواطف الغليظة.

وفي مثل هذه النصوص تواجه بالأنثى التي تبحث عن المتعة وتختار في اقتناع كامل من له وفرة ذكورية لاطفاء حدة الشبق، وتبرر بعض تلك النصوص النمط الجانح من السلوك تحت شعار حرية الأنثى في المعرفة، وحريتها في التعامل الخاص لمفرداتها الجسدية وفق الرؤى التي تحكم وتدفع.

وعبر النص، والحوار، والموقف، والمشهد الوصفي.. نلاحظ القيود التي يشار اليها كمعوق للذات، وللابداع معا، ونقف - في دهشة - على ما يسمى بالاستحواذ على الجسد وقمعه، ومن ثم إذعان الأنوثة وقهرها.

والكاتبات وهن يقتربن - كتابة - من مفرادت الجسد، لا يشرن - غالباً - إلى قضايا

اجتماعيـة أو فكرية لها طابع التأثير والتشكيل، مما يوحى بـقدر من الاستنارة - والخروج من الضرورة إلى الحرية.. كما يقول بعض النقاد، ولكنهم - فى الغالب الأعم - كثيرا ما يغرقن فى الفردية الخالصة ورصد العلائق الذاتية وفق التجربة ودرجة عمقها.

وتشيـر الكتابة التى تبدعـها الأنثى إلى تأكيـد الخلل الذى يرسيـه الإطار الدينى الحاكم من حيث تكريس التـمييز بين الرجل والمرأة، بـل إن الكاتبة وكتابتـها تشى بأن هذا التميـيز على مستـوى الأسرة والأمة يعرقل حـالة السواء النفسى، ويصيب العـلاقات التى توسم بالدفء بنوع من الوأد العـاطفى، ومن ثم تتـراكم الاحبـاطات ويتكرس العجـز.. وهو ما يدعـو الى المواجهة والرفض والتجاوز وإحداث القطيعة مع ذلك كله.

ولعلنا نلاحظ التـهكم من القـيم التى تحكـم طبائع البـشـر من رجـال ونساء، فـضـلا عن المساس بالعواطف الانسانية النبيلة، وامتهانها والدعوة الى التحرر من قبضتها توقا الى النهم الحسـى الذى لا ينتهى - كـتابة - ويصـبح التجلى الأدبـى فى الكتابة أن تصـبح الأنثى على استعـداد لقبول الآخر فى اللحظة المواتية إمعاناً فى الحسية وتأكـيداً للذات، وكأن الذات لا تتأكد إلا بالارتماء فى حضن الغريزة والتحرر من كل قيد.

وتجربة الكتابة الجسدية مرتبطة بالأدب الغـربى فى نصوصه الدالة على الحالة وفق المنظومة التربويـة والاجتمـاعية والاعـراف التى قد لا ترى فى مـثل هذه الكتابة خـروجا كـاملاً على النمط الفكرى والاجتماعى وان اقترب من نـوعية الادب المثيـر للغرائز.. الا ان الرأى اتفق على أن هذا النوع من الكتابة لا يتصدر نصـوص الادب وإنما يأتى فى مرحلة تالية لخلوه من الجمال الحقيقى وإصراره على الترخص فى الدلالة والتغيير.

ولعلنا ندرك ونحن نقرأ نصوصا فى هذا المجال.. اقتراب الاسلوب من المباشرة - وسيطرة مقـولات فكرية تؤدى إلى الجفاف، والخلط بين مـا هو حقيقى وواقـعى وبين ما هو متـخيل وعبـثى، والاغراق فى المشهـدية الحسية، والوصـفية السـردية، وتضمين النص تلاعـبات فى اللفظ، واستدعـاء لنصوص ذات مرام ورموز حسيـة.. وهى من آليات التعبير التى قـد تستر بفعـل الابهار والاثارة، العـوار فى الموهبة الادبيـة، والتى ترى أن الحسـية أقصـر الطريق الى الشهرة والاعلام.

فى مدح الهوى

إذا كانت المرأة عبر التاريخ.. كان لها دور فى مجريات الحياة المختلفة، سواء تصدرت المشهد أو حركته من وراء ستار، فإن دورها الشعرى لا يمكن تناسيه، فهى الشاعرة المبدعة التى يفيض شعرها بالحكمة أو الرثاء أو الغزل، وهى المثير الجمالى لخيال الشاعر فيبدع قصائد الهوى والغزل الحميم، الحسى منه والعفيف.

وثمة شاعرات عربيات مجيدات فى قول الشعر، قرضنه فى أغراض متعددة، وأفصحن فيه عن ذواتهن الشاعرة، وأجدن فيه بل وتفردن فى بعض أغراضه.. كالرثاء..

فى كتاب «حديث النساء» للشاعر حزين عمر محور هام يتناول المرأة والشعر.. أبان فيه عن حركة الجدل الحميم بينها وبين الرجل ورصد نظرة المرأة الشاعرة للرجل، صبياً، وعاشقاً، وزوجاً، وأبناً، وسيداً.. واستطاع أن يرسم بكلماته وبحرارة الحروف، وبالمسكوت عنه.. أحيانا.. صورة للرجل فى قلب المرأة، وأن يصطادها متلبسة بحالة الوجد والهوى.

يذكر مؤلف «حديث النساء» أن المرأة تحرص على كتمان هواها وصون عشقها فالتقاليد العربية تقف عائقاً أمام البوح، فهى بين أمرين قاسيين: الحبس عن الزواج والحرمان من الحبيب، أو القتل.

لكن التاريخ الأدبى رصد بعضا من المتمردات والجريئات على الفعل دون خوف أو مظنة عقاب، أما لأن المرأة الشاعرة ذات نسب يحميها.. حين تنتسب للنظام أو للطبقة الحاكمة أو حين تكون مصنفة ضمن الجوارى.. الجريئات.

وولادة بنت المستكفى شاعرة نادرة فى الجرأة على ابداء النزوع العاطفى دون وجل أو توقع أذى.

جاء فى كتاب «فواتُ الوفيَّات» للشيخ الكتبى طـ بيروت أن ولادة (كانت واحدة زمانها.. حسنة المحاضرة، مشكورة المذاكرة).. كتبت بالذهب على طرازها الأيمن

أنا والله أصلح للمعالى.. وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الجانب الآخر

وأمكن عاشقى من صحن خدى.. وأعطى قبلتى من يشتهيها..

ومثل هذا الشعر يثير الجدل، فثمة دعوة صريحة ـ كما جاء فى «حديث النساء» تثير الحس وتدعو إلى «اللثم والتقبيل» ومثل هذه الجرأة ليست تعبيراً يطير مع الهواء بل هو مسجل على طرفى ثوبها..

هذه الجرأة تكشف عن إرادة حرة قوية، وثقة بالنفس وقدرة على المواجهة وقدوة للآخريات للاعتزاز بالذات ومواجهة تقاليد المجتمع وموقفه من المرأة حين تعشق.

وذكر كتاب «وفات الوفيات» موقفا لها مع جاريتها يكشف عن الغيرة النسائية، وعن صراع الأنثى على الرجل.

كانت لولادة بنت المستكفى جارية سوداء جميلة وبديعة الغناء، وكان الشاعر ابن زيدون ـ وبينه وبينها حب موصول ـ مغرم بغناء الجارية وتطور الأمر حتى مال إليها القلب، وسيطر الهوى.. أدركت ولادة الأمر فكتبت إليه شعراً يكشف عن غيرة نسوية حقيقية وجاءت المقارنة بينها وبين جاريتها فى سياق فنى مبدع يؤكد كفتها الراجحة، جسدا مثمرا، وغصنا لدنا، وثراءً يفيض، ومنزلة عالية..

لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا..

لم تهو جاريتى ولم تتخير

وتركت غصنا مثمرا بجماله

وجنحت للغصن الذى لم يثمر

ولقد علمت بأننى بدر السما..

ولكن ولعت لشقوتى بالمشترى

وجاء فى كتاب «المرأة فى الإسلام» للأستاذ عطية الابراشى (ولادة بنت الخليفة المستكفى بالله، أديبة شاعرة، ناظرت الأدباء والشعراء وكان قصرها منتدى متسعاً، يأوى إليه رجال الأدب والشعر والوزراء، والعلماء، والقضاة).

إن شعر المرأة صورة لحياتها رفاهة وقسوة، تغزلت، وتجرأت، مدحت هواها وذمت ضعفها، باحت بغيرتها وتمردت، وتحدت الموروث وتصدرت الواجهة.

فى الهوى تصبح المرأة قادرة على أخذ المبادرة، بل والتمكين لحالة الحس أن تتحقق، والسعى إلى تجسيد ما تتخيل أو تتمنى، فهى لا تضع نفسها ـ فقط ـ فى موضوع الاستجابة.. أو التلقى.. وهى بالحدس الفطرى تشعر.. بالغبطة وهى ترى اهتمام الرجل بها.. (ومصدر الغبطة هو أن فعل الاختيار يجعلها تشعر بأنها محبوبة، مرغوبة، بغض النظر عن استعدادها وميلها للتجاوب العاطفى) ومن ثم تتلقى الهوى فى تناغم حميم ومشترك.

عيناك شاهدتان أنك من.. حر الهوى تجدين ما أجد

وعشق المرأة يتبدى فى الشعر الحديث واضحاً وجليا، فصورة المرأة تغيرت وتبدلت أحوالها فهى لم تعد الجميلة التى تنتظر الرجل الذى يهز قلبها ثم يخطفها ويمرق بها، وإنما هى التى تسعى إليه وتقتحمه وتسبيه عمداً.. وهو فعل إرادى ناتج عن درجة الوعى لدى المرأة فى تطورها العقلى ونداءتها المستمرة لمناجزة الرجل والمساواة به.

وإذا كان الحياء يغلب عليها بحكم الفطرة البشرية إلا أنها كما جاء فى «حديث النساء» تجرأت على النبش فى طبيعة الرجل، «فالمرأة الشاعرة فى عصرنا الحديث، اتسعت مداركها، وبدأت تناطح الرجل فى اهتماماته الفكرية لا الانسانية فقط).

والجرأة هذه نوع من التمرد على الحياء الشكلى، فلقد نالت المرأة حقوقاً كثيرة وزاحمت فى مجالات الحياة المختلفة وخاضت التجارب وتقدمت فيها، وقدمت عطاءها فى الفكر والأدب والعلم والحياة العامة بما يؤهلها لخوض التجربة فى وعى كامل بأبعادها..

وإذا كانت المرأة هى شاغل الرجل، فالرجل هو شاغل المرأة أيضا

تقول الشاعرة جليلة رضا فى حوارها مع الرجل . من كتاب (حديث النساء)

صورتنى عربيدة حينا وشيطاناً مريد

ونسبت كل الحادثات إلى من زمن بعيد

فأنا السفالة والنذالة والخيانة والجحود

وأنا التى أكلت ذراع طليقها حتى يعود

ها هى المرأة تدافع عن التهم التى يوجهها الرجل إليها، فهى قد خلعت ثوب الحياء، وعربدت، وهى التى أغوت آبانا آدم فزل، وهام بها قيس فضل، وهى التى «أكلت دراع جوزها) كما جاء فى المثل الشعبى.

وتتقدم الشاعرة بحجج الدفاع عن نفسها أمام الرجل وظنونه..

البيت دونى كالردى والكون كالقبر المديد
والصبر دينى والحنان شريعتى والعطف جود
وأنا بكل كيانى المهزول كالبطل النجيد
أتحمل الآلام والأمراض فى عزم شديد

إنها تدافع عن نفسها، وتتحدث عن التضحيات التى تقوم بها، فهى ـ أى المرأة ـ محور الحياة، ومبعث الخصب، وسبيل النماء، حبها دوحة للبيت وسكن للعيال، هى التى تتحمل الآلام والأعباء من أجل أن تنشىء للوطن أبناء صالحين.

لكنها تعود إلى الارتكان إلى الفطرة، والتسلح بأسلحة الأنثى التقليدية.. فتسجل حيل المرأة لا قتناص الرجل، وابداء فنون الهوى والدلال، واستغلال الضعف سبيلا إلى احكام القوة.

أين دمعى وأنينى وأفانين دلالى
تتحدانى! وما قيمة ضعفى إن هزمت
.. وهو درعى وجيوشى ومعدات قتالى

إن موقف المرأة ـ كما يرى الشاعر حزين عمر ـ من الرجل قد تدرج على مدى الزمن فلقد كانت منحازة له رائية أو مادحة، محبة أو نافرة، ثم اتجهت إلى البوح والهوى حتى واجهته فى وطأته وإملاله، لكنه فى كل الحالات هو الذى يعطى لها مشروعية أن تحب وتعشق الهوى.. وتمدحه.

خاتمـــــة

جاء القرآن الكريم وقرر أن المرأة جزء من الرجل، وقطعة منه وبضعة من كيانه الإنسانى الكلى، فـأعلى بذلك من مكانة المرأة، وأعطاها حقـوقـهـا كاملة علـى أساس من العـدل ومن المسـاواة، وحررها من القـيود التى كبلتـها روحا وجسـدا، فأتاح لها أن تسـمو فى أفق المعرفـة بأن تتزود من العلم ما شاء لها التزود منه، وضمن حقها فى المال والمتاع وما تملك.

وأرسى الدعائم التى تقوم عليها حياة الأسرة المسلمة، فجعلها تقوم على المودة والألفة والرحمة، حيث يتحـقق التـآلف الروحى والمادى والنفسـى، وتصبح المرأة رمـزا للسكن النفسـى والروحى والمادى والنفسى، وتصبح المرأة رمزا للسكن النفسى والروحى والجسدى مـعا ويتحقق بها ومعها طمأنينه القلب وراحة النفس.

وفى جو الرحـمة هذه ينشق السكون الجمـيل عن طفولة تنمو فى جـو يكفل لها حسن التـربية ويتهيأ لها أسباب النشأة وحسن الرعاية.

وتعرف المرأة دورها المـنوط بها، فهى الحـانية العطوف التى تحنو على زوجـها وأولادها، واعـية بدورها كاملا، ساعية لتـأمين الجو المريح لحياة أسرية سعيدة، فيـقبل الزوج على أداء عمله كأقوى ما يكون، وينشأ الأطفال تحت عيون أمهم رعاية، وحبا وحنانا.

وما جاء به الإسلام بالنسبة للمرأة راعى فيـه الانسجام الجميل بين المرأة وقوانين الفطرة البشرية، تلك القوانين التى تتفق مع كرامتها كإنسان، ومع تكوينها النفسى والجدى كأنثى.

إن مبادئ الإسـلام استطاعت أن تربى الزوجة الفاضلة، والأم الحانيـة، والفتاة المؤمنة.. وفى كل الحالات كان القـرآن هو المنهج الذى ينظم الحياة، وهو الدسـتور الذى يبعث الضوء فيـنير جنبات الدنيا.. وتقتبس المرأة المسلمة منه تلك اللمعة المضيئة التى تساعدها على حمل مشعل الهداية.

وطاعة المرأة لزوجها من أعظم الأمـور الأخلاقية الواجبة، والمرأة المطيعة لزوجـها لا تمسها النار، قيل للرسول صلى الله عليه وسلم: أى النساء أفضل؟

فقال عليه السلام: التى تطيع زوجها إذا أمر وتسره إذا نظر.

وإذا تمسكت المرأة بدسـتورها الإسلامى، كانت القدوة والمثل والنموذج الحـسن.. ولفظت تماما تلك القشرة الهشة الخادعة التى ترسمها الحضارة الحديثة للمرأة.

صدر للمؤلف

الإبداع

- الخروج إلى النبع «رواية»	مركز الحضارة العربية، ط٢.
- السيد الذى رحل «رواية»	هيئة الكتاب ط١، مكتبة الأسرة، ص٢.
- الضوء والظلال «رواية»	أصوات أدبية ط١، الكتاب الفضى ط٢.
- حرث الأحلام «رواية» -	هيئة الكتاب.
- الطرف الآخر من البيت «رواية»	المجلس الأعلى للثقافة.
- من يقتل الحب؟ «قصص قصيرة»	هيئة الكتاب.
- صدأ القلوب «قصص قصيرة»	هيئة الكتاب.
- البنات والقمر «قصص قصيرة»	هيئة الكتاب.
- ذات الشعر المنسدل «قصص قصيرة»	هيئة الكتاب.
- المدار «مسرحية»	هيئة الكتاب.
- الفيل الصغير «أطفال»	هيئة الكتاب.
- أنا وكلبتى «أطفال»	هيئة الكتاب.
- أنا لولو «أطفال»	كتاب قطر الندى.

دراسات أدبية

- نظرات فى قصص القرآن - ثلاثة أجزاء	رابطة العالم الإسلامى.
- من جماليات التصوير فى القرآن جزءان.	رابطة العالم الإسلامى.
- صورة المرأة فى قصص القرآن	مكتبة الحلبى.
- محمود البدوى عاشق القصة	هيئة الكتاب.
- الفن والبساطة	دار الشعب.
- القصة فى القرآن، مقاصد الدين وقيم الفن.	دار قباء

قراءات نقدية

قراءة فى القصة القصيرة	هيئة الكتاب.
الرؤى والأحلام - قراءة فى نصوص روائية	هيئة الكتاب.
الذات والموضوع	هيئة الكتاب.
السرد فى مواجهة الواقع	مركز الحضارة العربية.

المحتويات

الموضوع	صفحة
■ تقديم	٣
الباب الأول: صورة المرأة فى قصص القرآن الكريم	٥
■ مدخل	٧
■ التكامل بين الذكر والأنثى	١١
■ الانثى والضعف البشرى	١٥
■ المرأة وفتنة الجمال	٢١
■ خيانة الأمانة	٢٤
■ الإيمان بالله وتحرير الإرادة	٣٢
■ الصبر على البلاء	٣٦
■ العقيم الغيور والولود الصابرة	٤١
■ الأمومة - العاطفة والامتثال	٤٩
■ الأنثى.. الحياء .. والفراسة	٥٢
■ الأنثى .. الهوى والجموح	٥٧
■ المرأة.. العقل والحكمة والإرادة الفاعلة	٦٣
■ البتول الطاهرة.. وصدمة المفاجأة	٦٩
■ المرأة.. الحكمة والرأى الصائب	٧٤
■ المجادلة.. الشاكية إلى الله	٧٩
■ العفيفة المتهمة.. وحديث الإفك	٨٤
■ المرأة.... الكيد والغيرة وإفشاء السر	٩٢
■ المرأة.. و.. الحقد الذى يأكل القلوب	١٠٠
الباب الثانى: المرأة .. والحياة	١٠٥
■ منزلة الأم فى الإسلام	١٠٧
■ المرأة وطلب العلم	١١١
■ المرأة والحياة	١١٥
■ محاورة جميلة	١١٩
■ تكريم المرأة	١٢١
■ ستر الجسد	١٢٣
■ لندن .. وعربة الحريم	١٢٥
■ الإعلان والمرأة	١٢٨
■ الشاعر والمرأة	١٣٠
■ المرأة الحلم	١٣٥
■ الأدب والجسد	١٣٧
■ فى مدح الهوى	١٤١
■ خاتمة	١٤٥

المؤلف فى سطور

محمد قطب

- نائب رئيس تحرير مجلة القصة.
- عضو اتحاد الكتاب ونادى القصة ودار الأدباء.
- يكتب عمودا أسبوعياً بجريدة المساء تحت عنوان «نغمة للريح».
- نشر أبحاثاً ودراسات وقصصاً فى عدد من الصحف والمجلات المصرية والعربية.
- حصل على ليسانس دار العلوم ١٩٦٣ ونال الدبلوم العامة، ثم الدبلوم الخاصة، فى التربية وعلم النفس والمناهج.
- شغل منصب مدير عام النشر بهيئة الكتاب حتى ٢٠٠١.

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٤١٧٧
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977 -236 - 499 - 9
طبع بمطابع (دار الجمهورية للصحافة)

هذا الكتاب

●● فى شعر نزار قبانى .. كانت المرأة عنده قارة تستدعى الاكتشاف والبعث. كان يقول « كل امرأة كانت كتاباً مكتوباً بلغة جديدة وأسلوب جديد » .. وكان علىّ -أى نزار- ان اكتشف كل القارات واقرأ كل الكتب » ولعل ذلك كان وراء الجدل الذى ثار حول شعره فى المرأة.. وفى كل الأحوال.. تبقى حقيقة مؤكدة لا جدال حولها وهى أن الإسلام صان المرأة.. وحفظ لها كيانها وشرع من القوانين ما يحمى الجسد من الامتهان .. وصيانته من الابتذال.. وابقائها بعيداً عن سيئى الخلق الذين تقودهم رغباتهم إلى أعمال مشينة تتراوح ما بين التحرش الجنسى والاغتصاب والقتل.

لقد دعا الإسلام المرأة إلى العفاف، وغض البصر، والبعد عن العورات وحفظ الفرج.. كما أمر الرجل أن يكف بصره عن النظر إلى الأجنبيات .. « فإن النظرة تزرع فى القلب الشهوة ».

لقد كانت المرأة فى الجاهلية تمر بين الرجال مكشوفه الصدر بادية النحر حاسرة الذراعين، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغرى الرجال.. ومن ثم عالج الإسلام النمط المبتذل من السلوك فنزلت آيات النهى عن التبرج والمغالاة فى الزينة وطالبت المرأة بالعفة وحفظ الكرامة البشرية.. ذلك أن الإسلام يرى أن المرأة ليست فقط أداة للمتعة وإنما هى أساس الأسرة وصانعة الأجيال.. وهى مكرمة على أية شاكلة كانت.. أماً أو أختاً، أو ابنة وجعلوا لها عيداً.. هو « عيد الأم » وإن كانت تستحق أن يكون كل أيامها أعياداً.

فى « هذا الكتاب » الذى بين يديك.. والذى جاء إصداره مع مناسبة مهمة نحتفل بها جميعاً بحب ورضا.. مناسبة « عيد الأم ».

يقدم المؤلف الأستاذ محمد قطب الأديب النابغ فى كتابة « المرأة، العفة والرغبة » موضوعات مهمة وشائكة تستحق القراءة حول صورة المرأة فى القرآن الكريم.. والمرأة والحياة تحدث فيها عن التكامل بين الذكر والأنثى.. والمرأة وفتنة الجمال.. والحياء والفراسة.. والحكمة والرأى الصائب.. والعفيفة المتهمة.. والهوس والجموح.. والعاطفة والامتثال.. والصبر على البلاء.. والكيد والغيرة وافشاء السر.. ومنزلة الأم فى الإسلام.. وطلب العلم وستر الجسد.. وتكريم المرأة.

إن الكتاب يتعرض لأهم قضايا المرأة المعاصرة التى تشغلنا جميعاً.

علـــى هاشـــم